الجزء الأول – (البارت الأول)

الولادة؟ بمثابة تقيأ.. والايام ليست سوى امتدادات لهذا الغثيان المتكرر.. إذن، ها هو أمسٌ آخر، كانت الشوارع فارغة، بلا أي أثرٍ للرحيل، والرذاذ الهامس يتطفل فوق الجلد بشغفٍ وجموح، ولماذا يتطفل؟ لا أدري، سأجد إجابتي المنشودة في وقتٍ لاحق. لأنَّني الآن أبحث عن أية وسيلةٍ تُلين من ضغط أمي وهي تشدُّ بيدها على معصمي، ذلك المعصم المائل للتحنط والذبول.

تشد، ولا أفهم جيدًا لماذا تفعل ذلك، لكنها كلما ضغطت أكثر، كنت أتذكر الأوقات التي تلت، تلك التي أتوق فيها لمحادثتها بشيء ما أفكر به، لكنها كانت ترمقني بشدة.. فلقد ظلت على هذا النحو حوالي سنتين، توبخني لو حاولت أن أقول شيئًا تراكم في خاطري، وعلى نفس هذا الطريق المتعرج، لا لشيء، فقط لأصمت.

أنها تستغرب مني، واستغرابها هذا يجعلها قاسية معي، كانت تستفهم، كيف لمن في عمري أن يتحدث عن هذه اشياء كهذه التي أتحدث بها معها أو مع نفسي حينما أنفرد وحدي في غرفتي وهي تتلصص من خلف الباب وتسمع ما أقول، كانت لا تصدق أن هذه أفكاري، لأنه بالنسبة لها، تتجاوز سني.. وأني، وبهذا الظرف، من المستحيل أن أجرؤ على طرح مثل هذه الأسئلة. وما المهم؟ دعونا من ذلك..

كنّا نمرُّ بين صخب العربات الكثيف، ذاهبين إلى المدرسة، حتى توغل صوتٌ إلى مسمعي وأحدث جلبةً أفرضت نفسها على ذهني:

"أفيقوا، الظلام آتٍ إليكم، الظلام آتٍ إليكم"..

كان مُهترئ الثوب ذو عينين بارزتين كأنّهما تحاولان الفرار من مكانهما، ولا فرق بينه وبين جُثّةٍ خرجت من قبرٍ مطمورٍ تحت طيات السنين المُهملة. آوه إنّه على ما يبدو من طول لحيته البيضاء رجلٌ قد طحنته السنين! ربما يكون في حاجةٍ إلى من ينشله من جنود الجوع المقيتة، هؤلاء الجنود الذين أشبههم بالوحوش، لكنهم ومع كل ذلك، يحرسون بعنادٍ هذه البلاد الضائعة في أحلامها وخيالاتها.

وهنا، ارتعشت أصابعي في صمتٍ متقطع، كأنها تتردد بين التقدم والتراجع، فيما جسدي كله مال قليلًا للأمام كمن يتهيأ للنطق لكنه يخشى الانهيار في لحظة حاسمة. شعرت بأنفاسي تتسارع، وكأن الهواء قد صار أثقل من رئتيّ، وابتلعت ريقي على وجلٍ دون أن أعي ذلك، حتى استشعرت بأن شفتاي تتأهب مع اللّسان متوجهةً بشيءٍ من العطف، ليس كأي عطف، بلّ ذلك النوع المجرد من أي خُبثٍ مُتحايل، عطفٌ فارغٌ من الشهوات، مُتبرعًا له بخدمةٍ على حسب حاجته التي يطلبها، مهما كلفني ثمنها. هكذا كُنت أقول لنفسي، لكن، وقبل أن يستعد الحرف للعبور إلى الخارج، نقرت على جبيني بأصبعها المتين كما تنقر الدجاجة بحثًا عن ديدانٍ تتغذى عليها:

- دعك عنّه، إنّه مجنون

- ماما لعلّه...

- هيا بنا لقد تأخرنا

- يا ماما ماذا.. ماذا يقصد بأن...؟

قرَّعت مُمتعضةً وهي توعدني على تجهيز عقابٍ لذيذ على مائدتها المفضلة. ثُم شيئًا فشيئًا حلّ السكون المُثقل بالحديث، وسكن الكلام في جحور الصمت كعادته. لكن ما يجعلني أتساءل، أن كان هُناك مُتسعًا للقول، فهل هذا يجعل من الصمت صمتًا؟

أكملت الطريق أحاول الإلتفات إليه بين الحين والآخر حتى خضعت إلى سطوة عينيها الغاضبتين وأنحنى رأسي ببطء. آهٍ كم أكره تلّك اللّحظات التي أغطي بها رأسي بين ذراعيَّ رغم أنّهما لا يستطيعا إخفاء جناح بعوضة. خوفًا من المواجهة، مواجهة أن أكون مُحقًا. وهل سأجد بين فضلات العمر شخصًا ما لهُ القدرة أن يستمع إلى ثرثرتي التي أملأ بها شقوق الجدران المُغتربة الوحيدة، ثرثرتي التي أعلقها فوق الهواء الهارب من صدري، لأن الهواء الخارجي لا يقبل أيّة علاقاتٍ عابرةٍ معي. لكنما ما يقلقني الآن حقًا، إنني أسمع أنين، هناك من يُئنّ من بعيد، المدرسة؟ مجرّد جدار أصمّ نرسم عليه صراخنا بالطباشير، ثم يُمحى كل شيء قبل أن نتذكّر ما كتبنا.

كانت أمي تمضي أمامي بخطًى ثابتة، لا تنظر خلفها، لا تسأل إن كنتُ لا أزال أتبَعها أم أني تبَعتُ ذلك الرجل المهترئ بكلماته، "الظلام آتٍ إليكم"... تتكرّر العبارة في رأسي كجرس جنازة أُجلّ دفنه. لا أستطيع أن أنزع صوته من صدري، كأنّه سكنني دون إذن، واستقرّ في رئتي الثانية، يُلهبني كلّما حاولت تنفّسًا.

آهٍ يا أمّي، لو تعلمين أني لا أخشى الجنون بقدر ما أخشى أن أصبح مثلهم ولا أصرخ. أن أتحلّل ببطءٍ دون أن تلاحظي، أن أموت في داخلي ولا ينكسر كوب ماءٍ زجاجي متروك على إحدى الطاولات في هذا العالم حدادًا عليّ، وإن كان سقوطه من فوق الطاولة، محض هفوة.

****

مرّت لحظاتٌ دون ضجيج، فقط صوت الإطارات وهي تلامس الإسفلت بتكرارٍ مطمئن، كما لو أنّ الحياة يمكنها أن تتظاهر بالهدوء، ولو لثوانٍ. في الخارج، كانت اشجار السدر تلوّح بعفوية لا تفهمها المدينة، والسماء رمادية لكنها ليست عابسة. كل شيء بدا كأنه لا يعرف بما يدور فيَّ، وهذا وحده عزاءٌ مؤقت. هذه اللحظات الساكنة، تشتد كاللّيل حينما يرخي نفسه على السماء، فاتحًا ستائر الذكريات دون أن أتراءى لها قليلًا. آوه! أتكلم عن الذكريات! ما هي الذكريات؟ كيف لي أن أتجرأ بتلفظ تلّك الكلمة، رغم أنني أفهمها جيدًا أكثر من البالغين.

وبينما كنت أمشي، انطلقت كرة صغيرة من أحد الأزقّة، تتدحرج بسرعة حتى اصطدمت بحذائي المُمزق. لحظتها تبعها صبيٌّ يلهث، شعره مبعثر ويداه متسختان بالتراب، نظر إليّ مبتسمًا بخجل قبل أن يخطف كرته ويعدو من جديد، توقفتُ للحظة أتابع خطواته، إذ بدا لي وكأن ضحكته تحمل خفّةً لم أعد أملكها كما من قبل. شعرتُ بغصّةٍ صغيرة، فأنا لم أبتعد كثيرًا عن تلك الأيام، ومع ذلك بدا الفرق بيني وبينه شاسعًا، كأن السنوات القليلة تكفي لتسرق شيئًا لا يعود.

حسنًا، وصلنا إلى المدرسة، أبوابها كانت مثل أفواه مفتوحة، كأنها تنتظر أن تبتلع كلّ من يقترب منها. المعلّمون والمعلمات يقفون قرب المدخل، يضحكون ويتهامسون، كأنهم يخافون أن يسمعهم أحد.

أنا لم أسمع الكلمات بوضوح، لكنها بدت غريبة، ثقيلة، أكبر منّا نحن الصغار. هناك ضحكات قصيرة تتبع بعض الجُمل، نظرات متبادلة، وإشارات بالعيون تجعلني أشعر أن ما يقولونه لا يشبه دروس الحساب ولا قواعد اللغة. شيء من تلك الأشياء التي لا نعرفها، أشياء يخفونها عمّدًا عنّا.

كانت إحدى المعلمات تمسك بحافة الباب وتضحك بخجل، ثم اقترب منها المعلم بخطوات قصيرة وسريعة، وهمس في أذنها شيئًا جعلها تلتفت فجأة، تغطي فمها بيدها، ثم تضحك بصوت مكتوم وكأنها تحاول إخفاء سرّ:

- أحقًا ذلك؟

- ولما لا؟

احنت رأسها وهي تعدل قميصها، قال المعلم وهو يميل إلى الأمام، وغمزة عين خفيفة:

- لم أكن أتصوّر أن الأمر سيكون بهذه الطريقة...

ضحكت المعلمة بسرعة، ثم تحركت إلى جانبه، تلمس ذراعه على سبيل المزاح، وتخفض صوتها:

- ستتفاجأ اللّيلة كيف سأقدم درس الرياضيات لك

- بلا شك...

حينها المعلم أومأ برأسه وكأنه متفق مع المعلمة على شيء، ثم فجأة التفتا إلى بعضهما البعض وكأنهما يختبران إن كنت أراقب. انسحبت أصابعي إلى جيبي، وأنا أحاول ألا أرمش، لكن عيني لم تفارقهم، وشعرت أنني أطلّ على عالمٍ كامل من الأسرار والهمسات التي لا يفترض أن أسمعها.

كنت قد جلستُ في زاويةٍ خاوية، أحدّق في الأسيجة، وأراهن على صمودها المزيف. آنذاك، ألقى أحدهم لي من بعيد نظرة خبيثة، قلت في نفسي، دعنا نتحضر لتلّك الأسطوانة الفظّة:

"جائنا الحثالة.. جائنا الحثالة"..

آهٍ، سيتكرر هذا الأمر مجددًا، أن أسمع هذه العبارات، دون أن أترك آثارٍ أو أماراتٍ تدل على التبرم والإنزعاج. نعم! هكذا يجب أن أفعل، أن أكون لطيفًا كما تقول أمي، وديعًا، هادئًا، خجولًا.

لكن... لماذا؟ أليست هذه صفات الضعفاء؟ أليسوا العبيد في حصّة التاريخ كانوا يذكرون على أنهم يفعلون ذلك؟ مُحتقرين، مُهمشين، يُصفعون ويردون الصفّع بالضروع أو الإبتسامة؟ ولا أدري كيف يبتسم المرء لمن يُهينه؟ رغم أنني كثيرًا ما أقوم بذلك.

أجل.. أضف على ذلك، أنني حساس أكثر مما ينبغي، كما قالت لي المعلّمة ذاتها حينما رأتني أرتجف وأنا أقدّم مشهدًا مسرحيًا أمام التلاميذ. همست: "أنتَ تشعر كثيرًا، يا صغيري."

ولا أدري... هل كانت تشفق أم تسخر؟

ثم إنني، حين أعود للبيت، أظلّ أفكر في كلامهم لساعات، حتى وأنا أغسل يدي أو أغيّر ملابسي أو أتناول قطعة الخبز المحمّص بعدما تنتهي أمي من توبيخي على أشياءً لا أدري ما فائدتها، كأن كلماتها تغفو داخل رأسي وتهمس لي في الليل.

حتى أنني بدأتُ أحاول أن أتخيّل شكل "الحثالة" الذي يقصدونه... لكني، حين أنظر في المرآة، أرى وجهي، عاديًّا جدًا. عيوني بنيّة، أنفي كبير بعض الشيء، أذناي تنفرجان قليلًا عندما أضحك. لا شيء يوحي بالحثالة!

ثم أتذكر أنني أحبّ الضفادع، وأرسم على الحيطان، وأخجل أحيانًا من دون سبب... فهل هذا يجعلني من "الحثالة"؟

ربما لو كنتُ أكثر قسوة، أكثر صراخًا، لكانوا احترموني؟ آهٍ.. كيف ذلك؟ لا أعرف طريقةً تجعلني أصيح مثلهم، أنا أجيد فقط النظر الطويل في الوجوه، أراقب، وأسأل نفسي أسئلة كثيرة لا أقولها لأحد، حتى لا يضحكوا عليّ.

حتى في بعض الليالي، عندما تمر أسابيع على ذلك، أستلقي على سريري وأتحدث مع نفسي كأنني شخص آخر، لماذا قالوا "جاؤونا الحثالة"؟ هل كانوا سيقولونها لو كنتُ أرتدي حذاءً جديدًا؟

أحيانًا أشعر أنّ رأسي أكبر من جسدي، ليس لأنه يحتوي على الكثير من هذه الأفكار، التي لا أعلم ما مصدرها، بل لأنه مزدحمٌ بكلام لا أستطيع إخراجه، كأنه يلتف فيَّ مثل خيوط الصوف، ولا أملك إلا أن أعض شفتي وأصمت.

حينها، وأنا في سبابٍ طويل مع أفكاري، هاجمني صوتها كما تُهاجم خيوط اللّهيب بأجيجها أي نسمةٍ باردة تخطف بقربها:

"سأتركك عند باب المدرسة"...

التفتُّ إليها، فلم ألحَق من ملامحها شيئًا؛ كانت قد أدارت ظهرها، تسير بحزمٍ كمن يخشى أن يلتفت فينصدم بما قد يراه. عبَرتْ الرصيف المكسَّر الذي تتناثر فوقه قشور عباد الشمس وأكياس النايلون المتهالكة، وانثنتْ عند الزاوية كنسمةٍ جافّة تتلاشى بين الجدران المتهالكة، جدرانٍ كأنّها تحفظ همسات آلاف الفقراء الذين مرّوا من هنا ثم اختفوا.

على بُعد أمتار، تتوسّط المدرسة حشدًا من المحال الصغيرة، بائع خضرواتٍ ينادي بصوته الأجشّ، عربة شاي تفوح منها رائحة الحطب الرطب، وأكوام قمامة تناضل كي لا تندثر تحت أقدام العابرين.

المدرسة نفسها، مبنى مستطيل باهت، تعلوه لافتة صدئة بالكاد تُقرأ. سياجها الحديدي مصدّأ، كأنّ الزمن ينهشه بأسنانه، وبوابتها ما زالت مفتوحة على فوضى من الصغار يصطخبون ويتصايحون، بعضهم يحمل حقائب ممزّقة وبعضهم بلا حقائب على الإطلاق.

وقفتُ هناك، في مفترقٍ بين بيتٍ غادرته وأبوابٍ لا أعرف إن كانت ستحتويني حقًّا. كانت أمّي قد مضت، وكأنّها تُغلق خلفها بابًا لا يُفتح، لا لأنّه مقفَل، بل لأنّ مَن أغلقه لم يَعُد يعنيه ما خلفه.

صارت خُطاها تبتعد، ومع كل خطوة، كنت أشعر أن العالم يتقلص من حولي، وأنّ هذا الشارع الضيق المتعرّج، المبلول ببقايا مطر الأمس، لم يُخلق إلا ليثير ريبتي.

نعم.. هكذا رحلت، بدون وداعٍ يتناسب مع هذا القلق الذي يجري فوق جسدي فرحًا بإنتصاري على أطرافي الهزيلة. لكن ما يُضحكني إلى حد التبلور خجلًا من نفسي، هو أنني أرجو الإحتماء من هذه الأنياب المُمتدة بمن يُخيفني أكثر. ولا أدري كيف يطلب أحدهم أن يحتمي من وجوه الشياطين بشيطانٍ أشرس وأكثر رعبًا منهم جميعًا؟

أن زملائي في الدرس يفعلون ذلك، ينعقون حتى تظهر أصواتهم بشكل هياجٍ محموم، لا رادع ولا هُدى فيه في كل سقوطٍ، مُعلنين الغلبة على إنسان مثلي، إنسان ضئيل، أو طفلٌ لا يعرف كيف يردّ الصفعة إلا بكلمةٍ مرتعشة، أو نظرةٍ حزينة من تحت رمشه. فليس لدي حيلة سوى الهجوم بغضبٍ حاد، لكنه ليس كغضبهم؛ بل باطنيّ، كأنّه يختبئ بين أظلع صدري مثل حيوانٍ صغير خائف من الضوء، لأنّه لا يحبه، أو ربّما لا يفهمه.

أما عندما تظهر فرقةً قميئة آخرى تباريهم في الاستبداد والسلطة، راحوا متوسلين بمن يُرجع لهم توثبهم ومكانتهم مُجددًا، كأن الحياة ببرمتها بالنسبة لهم، عبارة عن حلّبةٍ عملاقة، يتصارع فيها قساة القلوب فيما بينهم، بمختلف فئاتهم، وبشكلٍ روتيني. فهل لأنّني لا أتصف بما لديهم من وحشية الحيوانات الدميمة، ما يجعلني أن أكون ملاكًا بريئًا مُرسل من النعيم الفاره؟ فجزء كبير منّي -لا أجرؤ على إخباره لأحد- يُريد الانتقام، يُريد أن يصرخ، أن يعضّ، أن يرمي الطاولة التي أجلس عليها. لكنني لا أستطيع. لا أقدر، ملامحي الطفولية، وجسدي النحيل، لا يساعدانني على إخافة أيّ كائن، حتى لو كان بمقاس نملة تسير على طرف السبورة.

بعدها غدوت في مكاني مُطأطأً الأرض بخضوعٍ مُطبق، إذ يخرج من بين الظلال الباهتة صوتًا مُخيفًا:

"حيّوا من جاء، رحّبوا بالفأر الصغير"..

انتابتني رعشةٌ جعلت لساني يُطوق فمي قبل أن يحملني ذهني للتساؤل عن من أتشبث به الآن. لا توجد حفرة تليق بهذا الجسد البليد، لا يوجد خيال عندما أغمض عينيَّ هربًا من هذه اللّحظة المشؤومة، لا يوجد سوى التماهي الذي لا يستطيع إخفاء قطرات العرق المتوسدة فوق الجبين، وعلى الأصابع، وبين كل ما هو مسموح به للتحرك، لخمس ثوانٍ على الأقل. نعم، هكذا هو الحال عندما تكون صامتًا!

تقدموا بخطوات ثقيلة متزنة، تزمجر الأرض تحت أقدامهم كأنها تستنجد، تناثرت نظراتهم كالمراقبين اثناء الامتحان، لكن هذه المرة نحو جسدي المرتعش، تلاقت أيديهم أمامهم، قبضة تلو الأخرى، كأنها تتآمر على سقوط هيبتي التي اتخيلها في بعض الأحيان وأنا أنبسط على فراشي نصف عاريًا، وحدي.

تأرجحوا ببطء، ببطء قاتل، لا كلمة تنطق بها الشفاه، فقط ضجيج الأقدام والحركات التي تسبق الألم، أما الزملاء الآخرون، لم يفعلوا شيئًا، فقط كانوا هامسين وصامتين جدًا، ولكنهم وبرغم عدم نيتهم لي بالأذى، إلا ان في وجوههم ما يفتش عن الضعف، وجوه تتنفس العنف الذي ينتظر الحدث.

حينها توقّفتُ عن التفكير للحظة، فقط لأن كل شيء بدا ساكنًا. حتى قلبي، رغم اضطرابه، كان يحاول أن يصمت... مثل كل شيء آخر. لكن.. لما.. لماذا... الصمت؟

أتذكر في هذه الثواني قول جدتي الذي قذفتني به وهي على فراش الموت بنبرةٍ خشبية مُجعدة، لا تشبه ما قد تختاره الأفكار الأعتياديّة، مُنجبةً على أثر ذلك كلامًا يشبه دلالات هذه الجملة التي تنطّ أمامي دومًا:

"إن وجودنا هذا يا صغيري بكلِ حوادثه الرتيبة وعذابنا الضني سِوى ومضٍ خاطفٍ في ذاكرة الحياة".

رغم أنني لم أفهم كلامها جيدًا، لكنّني أشعر بأنّه حقيقةٌ تنسجم مع لحظاتي الراهنة.

إذن، ما هذا الذي أمرّ به الآن؟ وكيف يمكنني تفسيره؟ عوضًا عن ذلك، يستوطن الخوف فيَّ حتى عندما لا يوجد أحد يقوم بتهديدي.

أقف هكذا وأسأل نفسي دائمًا، لماذا يخبو صوتي ويدفن نفسه مرتبكًا من الترقيع واللّوم المقذع والتحقير، وأن يرتجف منكسرًا بين الشفتين كالزجاج دون أن يلاحظ انكساره أحدًا؟

ولماذا تشتد عليَّ لحظات التوتر وتتزاحم أشباح الريبة في الأماكن العامة، وتزئم الكلمات مبتعدةً عني كأنها لم تكن من صُنعي، ولا تريد أن تكون من صنعي في يومٍ ما.

ولماذا يتحول هذا الرأس إلى عاصفةٍ من التهويش عندما تكتظّ الأفواه أمامي، لدرجة أكون فيها مستصعبًا ترتيب الحروف على نحوٍ يجعلني أقول شيئًا واحدًا مفهومًا، ويصبح نطقها عملٌ شاق إلى حدٍ لا يقوى الفم على إنجازه، فهل أستحق كل هذا العناء لقول كلمة؟ أن أقول "لا" على أقل تقدير؟

يا إلهي.. كيف سأتحضر لذلك؟ أخذت نفسًا طويلًا، وقلت لنفسي أشياء كثيرة، حاولت أن أقنع جسدي بأنّها مجرد صفعاتٍ متتالية، لم يتوقّف على أثرها نبض الحياة المُتدفق في هذا الفضاء العبثي الهائل.

لكن هناك ما يدعو للفجة حقًا، فإذا كانت الصفعة لا تتجسد في كونها سوى حركة ديناميكيّة كما تعلمنا في درس الفيزياء، فما الذي يجعل إحترامنا لذاتنا ينمسخ حتى نصل إلى موضعٍ يتّصف بالحقارة والقرف؛ لدرجة أننا نرفض أن نكون فيها، أو نتقوقع حتى تراودنا في الإهانة لذّة عجيبة، ولا أفهم كيف يحصل الأمر، لكنّه يحصل غالبًا.

فنحن حين نُصفع، لا نتلقى الضربة على الجلد فقط، بل في مكانٍ أعمق، في فجوةٍ غير مرئية تتسع مع كل خذلان، كل نظرة احتقار، كل مرّة نُجبر فيها على ابتلاع الألم وكأننا نتلذذ به، كأن الصفعة توقظ فينا شيئًا بدائيًا، مُسخًا، مُخجلاً... شعورًا بأننا نستحقها، أو على الأقل لا نستحق أن نردّها.

وأظلّ أتساءل، من أوّل من أقنعنا بأن الكرامة ترف؟ من أوّل من أذلّنا فصمتنا بحجّة الحكمة أو النجاة؟ لقد صار فينا من الغرابة ما يكفي لأن نخجل من الغضب، ونبرّر للجلاد فعلته ببلاغةٍ جبانة.

نُدمن الصفعات ونُؤنسنها، فنمنحها أسماءً لامعة، "تجربة"، "درس"، "قَدَر"، وكأننا نخشى الاعتراف بأنها إهانة سافرة. لا أدري.. أحيانًا، أخاف أنني لم أعد أميّز بين الصفعة وبين الحضن. كأن ذاكرتي اهترأت، وتشابكت فيها أيادي المُعذّبين، فباتت الطمأنينة تُشبه الركل، والسكينة تُشبه الخنوع.

لم أرفع يدي، لم أُدافع.. تركتُ الكف تهوي على وجهي، شعرتُ بحرارةٍ تتسلل إلى خدي، لكنها لم تلسعني كما توقعوا. كأنّ الألم ليس لي، بل لشخصٍ آخر يسكن هذا الجسد. سمعت أصواتهم تتعالى:

- "اضربوه أكثر!"

قال الآخر:

- لا تدعه يرفع رأسه!"

لكنني كنت صامتًا، كمن ابتلع لسانه عمدًا. لم أرغب أن أهبهم تلك المتعة، متعة سماع صوتي يتوسل. سقطت ضربة أخرى على بطني، انكمشتُ قليلًا، ثم وقفت. لا أعلم من أين جاءتني تلك الرغبة العجيبة، لكن شفتيّ ارتجفتا... وابتسمت، ابتسامة صغيرة، هشة، مثل جرحٍ يُفتَح لا عن قصد. رأيت الدهشة في أعينهم، أحدهم صرخ:

- "هل يسخر منا؟!"

لم أُجب. كنتُ منشغلًا بمطاردة فكرة غريبة في رأسي، أنّ الألم حين يتكرر يفقد معناه. يصبح مجرد صوت، مجرد ثقل، مجرد حركة لا تهدد شيئًا داخلي. اقترب آخر بدين، قبضته مرفوعة:

- "لماذا تبتسم أيها الفأر؟ تكلم!"

لكنني لم أجبه. كنتُ أبتسم فقط، ابتسامة لا أفهمها أنا نفسي... هل هي تحدٍ؟ أم استسلام؟ أم إعلان صامت أنّ ما ينهالون به عليّ لا يصل إلى أعمق نقطة في داخلي؟ وهكذا، كلما ضربوني أكثر، كلما شعرت أنّني أنفصل أكثر عن هذا الجسد. كأنني أشاهد مسرحيةً رخيصةً من بعيد..

ولأصارحكم بشيء، شيء عالق في حنجرتي، لكني سأكون شجاعًا هذه المرة، واعترف بذلك...

إن هذا الضرب الموجع رغم إنَّني أبغضه، لكنّه في الواقع يشعرني بأهميتي، يشعرني بأناي الضالة في هذا العالم، ولماذا قد يستهجنني أحدٌ منكم لو قلت له هذا الأمر؟ ماذا بكم؟ ألا تعلمون كم هو قاسٍ ألَّا تُلاحظ من أحدهم؟ ألَّا يدًا تُريد أن تلمسك؟ ألَّا صوت موجهٌ لك؟ ربما هو مُبررٌ ساذج لأتحمل هذه الضربات، لكن ماذا يمكن أن أقول!

هل هذا انحراف؟ ربما... هل هو مرض؟ لا أدري. لكنّي أعلم أنني لو متُّ غدًا، فلن يتذكّرني أحد سوى كرقمٍ ناقص في دفتر الحضور؛ لهذا أتمسّك بهذه الكدمات، أضمّها في داخلي، كأنّها هدايا مغلّفة بالخوف؛ لا لأني أحبها؛ بل لأني لا أملك غيرها. ولأن الوحدة... أقسى بكثير من تلك الصفعة.

تحمل يا جسدي، تحمل...

فما هي إلَّا دقائق ونرجع أنا وأنت إلى المنزل، الذي أعلم بأنه يبدو لنا شيئًا مختلفًا عن كونه منزلًا.

(البارت الثاني)

أنسلّت إشعة الشمس المتموجة إلى داخل غرفتي، بندىٍ طفيفٍ وبزقزقةٍ مرحة، وحفيفٌ يزرع في أعماق الصدور نبضًا طروب. مهرولًا على غرته ومتحمسًا بنمطٍ مُثيرٍ للسخرية، ولا أعِ ما سرّ حماسه المستمر هذا. فهل يسهل على أشعةٍ أن تجد غايةً تستيقظ نهمةً للحياة من أجلها؟ على عكس ما أعانيه أنا في إيجاد شيئًا ما يجعلني أتسلّى مثلهم في بساتين الحياة وأحسّ بروائحها الزكيّة وأنغامها الرشيقة بشكلٍ دائمٍ ومتواصل. فوق ذلك، أن ما يزيد قلقي، هو شكيّ في حقيقة هذه الصفات الجميلة لها، وهذه السهولة في التعامل معها، فهل هم صادقون بالفعل؟ لا أدري، أنا فقط أقول ما يشاع بين الناس عن الحياة، وأحاول تصديق ذلك الجانب المُشرق مثلهم، لئلا يُنظر لي بإنّني أخرقٌ، ممسوسٌ، غريب أطوار. أن ما أقوله أحيانًا، لا يقوله بمن يماثلوني في العمر والهيئة. على أيّة حال، عليَّ الذهاب وحدي إلى المدرسة، فثعابين الزكام ألتفت حول أمي بطريقةٍ إنتقامية حتى أرقدتها تمامًا.

نعم، رأيت أمي مستلقية، يغطيها الغطاء حتى ذقنها، أما أنفاسها سريعة للغاية، تخرج وتعود بصوتٍ يشبه الصفير، وعينيها نصف مغلقتين كأنهما لا تريدان النظر إلى أي شيء، امي هذه التي تخيفني كثيرًا، بدت لي صغيرة فجأة، كطفلةٍ متعبة تحتاج من يربّت على كتفها.

لم أعتد أن أراها هكذا، فقد كانت دائمًا واقفة مثل نخلة عالية، تنهرني بنظرة واحدة وتجعلني أرتبك من أقل حركة. لكنني الآن رأيتها غصنًا مكسورًا لا يقوى على حمل نفسه.. رفضتُ أن أقتنع أنّ هذه هي أمي نفسها. لا، أمي لا يمكن أن تضعف، لا يمكن أن تتنفس بهذا العجز، لا يمكن أن تغلق عينيها كأنها تستسلم.

ظللت أحدّق فيها وأنا أبحث عن تلك النار التي كانت تشتعل في وجهها حين تغضب، أو ذلك البريق الذي يجعلني أهرب من نظرتها، لكنّي لم أجده. قلتُ لنفسي إن ما أراه ليس أمي، بل ظلّها فقط، وإنها ستنهض بعد قليل كما تفعل دائمًا، وتصرخ باسمي بقوة تجعلني أرتجف من جديد.

وبينما كنت غارقًا في هذه الفكرة، سمعت وقع خطواتٍ خفيفة، كانت أختي مريم تدخل الغرفة بهدوء، تحمل بيدها إبريق ماءٍ صغير وقطعة قماش. جلست قرب أمي ومسحت جبينها بعناية، ثم التفتت إليّ وقالت بصوتٍ حازمٍ يشبه الكبار:

- أنت اذهب الآن إلى المدرسة، سأبقى أنا عندها.

شعرتُ وكأنها تُبعدني، كأن مرض أمي ليس من شأني انا أيضًا، أردت أن أجادلها، لكني بقيت واقفًا بلا كلمة، متردّدًا بين الخروج وبين البقاء. ومع ذلك، خرجت متمشيًا بتمايلٍ وتشويش، دفعت الباب ببطءٍ حتى صرّ مفصله الخشبي، ثم انفتح قليلاً قبل أن أزيحه بجسدي كله. نظرتُ خلفي لحظةً واحدة، ثم أسرعتُ بخطوةٍ مترددة إلى الخارج، وأغلقت الباب وراء ظهري كمن يحاول أن يمنع شيئًا من الهروب.

كنت كلما تقدم خطوة، أتعثر في نفسي، وفي هذا الطريق الطويل، وأنا منحني الرأس، أشتدت وطأة صوت ذلك الذي يُدعى بالمجنون ويقترب فحيحه المُريع بإتجاهي مباشرةً.

كان مستلقيًا على مدرجات الرّصيف، ذلك الرصيف المتصدّع من دموع المتسولين، كأنّه منسدح في عطلةٍ صيفيّة على رمال شواطئ أوربا المكتظّة بالخمول. هكذا رأيت الشواطئ عندما شاهدتها في التلفاز حينما كنت أشاهد فيلمًا وثائقيًا عن الحيوانات وسلوكياتها، لكنه قبل يومين تعطّل، وظل يصدر هذه الألوان العشوائية المزعجة.

لم يشعر قط بأن هُناك شاحنة كبيرة متوجهة لسحقه، إذ بي أركض مهروعًا كما يركض المُحترق بوضعٍ فوضوي، على أملٍ ضئيلٍ لينجو بنفسه. وقبل أن أقوم بزجّه عن الشارع، مرّت من خلفه بمسافة سنتيمترات قليلة لا تكاد أن تكون محسوسة. لكنّني بقيت مهزوزًا، مُتصلّب المفاصل، لا أبصر واقعي كما هو من هول هذا المشهد الذي أعطاني فسحةً أن أتأمل معنى النهاية بعدسةٍ أكثر ثقبًا وحدّة، هذا المفهوم الذي لا أدري كيف فهمته أنا، برغم عمري، ولا أدري كيف لنا نحن أن نتقبّله بصدرٍ رحب، لأنّنا مبرمجون على أن لا نتوقّف، طالما نشعر بأننا نشعر؛ إذن هنالك المزيد.

لم يستمر هذا الحوار البائس الذي ما حملني على نتيجةٍ مُريحةٍ كما يفعل دومًا، فقد قاطعني هذا الرجل مهمهمًا بطريقةٍ خاليةٍ من أي حسٍ أضطرابي:

"ألَّا ترى بأنّك تحجب الشمس عني؟"

صقعت من جموده الغريب مُفزعًا إلى مدرستي، مُتسائلًا ما الذي قد يجعله هكذا كتمثال مُهمل، لا هو ذو شكلٍ مُلفت ليؤنس من يلحظه، ولا له قيمة عند غيره. ثم في لمحةٍ ما كفكفت عن إطلاق ساقيَّ للرياح ولم أرجو داعيًا أن يُصادفني أحدًا أعرفه لرواعة الموقف الذي ساد قبل حين. لكن مع ذلك قابلّت من زملاء المدرسة أحدهم بلونٍ من التلهف المصّطنع:

- يا سعيد! تعال أسمع ماذا قد وجدت!

- ضفدعٌ جديد وجئتني محتارًا بتسميته؟

- لا لا، كان هناك رجل...

- تقصد عيسى النتّن؟

واجهت كلامه بمزاجٍ يكسوه غيظٌ شديد، وعرفت من خلاله بأسمه. إنّه لأمر مثير، أن أعرف أسم من يوقظ فيَّ احتدام الإثارة، لكنّني لم أتمكن على إخراج عباراتٍ تضاهي عمق الشّعور. أجبته مُتلعثمًا بلغةٍ متورمةٍ وصوتٍ مشروخ:

- لكنّه ليس.. ليس كما تقول.. ليس نتنًا!

- وما تفسر هذه الرائحة التي تخرج منّه حين يمرّ بقربك؟

- رائحة؟ أيُّ.. أي رائحةٍ تقصد؟

غمغمت بشيء من الوهن والأرتعاش:

- ما رأيك أن نتعرف عليه؟

- كم أنت معتوهٌ وفارغ، توقعت أنّك أتيت هذه المرة بضفدعٍ آخر، لأرميك به وأتخلّص من أفكارك السّاذجة.

أخذتُ وهلةً دون أن أنبس بكلمةٍ واحدة، متسائلًا، وأنا أراقب من زاويتي الصغيرة، ما ذنب هذا الضفدع الصغير الذي أراد قتله بكل سهولة، من غير أن يعرفه، أو تربطه به ذكرياتٌ من نوعٍ إنسانيّ رقيق؟

كنتُ أفكّر كطفلٍ حالمٍ لا يفهم لماذا يفعلون الناس أشياء تبدو قاسية... أسأل نفسي، لماذا لم يُبالِ، ولو بشكلٍ بسيط، بأنّ الضفدع ربما كان يتقافز فرحًا للقاء أنثاه المرتقبة، في موعدٍ غراميٍ على الوريقات، ووسط رائحة الطحالب المقرفة، أو ربما كان يبحث عن طعامٍ يُرطّب به صرخات الغريزة المتغلغلة في بطون صغاره الجائعين. أنا.. أنا لا أعرف كيف يفكر الضفدع بالضبط... لكنّي تخيلتُه فقط، كما أتخيل ألعابي وهي حزينة حين أنساها.

فثمة شعور مختلف تمامًا حين نرى قطةً مُدجّنة تتألم؛ ننقبض وجعًا لو مسّها جرحٌ بسيط. لكن... أليس كلاهما حيوانًا؟ فما المسوغ الذي يجعل قتل الضفادع أمرًا عاديًّا، بينما إصابة قطة تُعدّ مصيبة؟ لماذا نشعر أن الضفدع "يستحق" أن يُقتل، أو أن وجوده لا يساوي شيئًا؟ أنا لا أفهم، لكنني بدأتُ أشكّ أن الأمر له علاقة بشكله...

رغم كل هذا الضباب في رأسي، كنت هناك، لا أجادل أحدًا، فقط أفكّر كما لو أنّ عقلي يتحسس الأشياء لأول مرة. لكنني لم أكفّ عن التخبط. قلت لنفسي بصوتٍ خافت، إذن، وبعد كل هذا... كيف سنفهم هذه الحالة الغريبة في تعاملنا مع ما هو أقل جمالًا؟ لحظة... ماذا قلت؟ أقل جمالًا؟

هل نحن نكون قساة فقط لأن الضفدع ليس جميلًا مثل القط؟

تذكّرتُ أمي، كيف كانت تقتل البراغيث في الصيف حالما تدخل عتبة الباب. كانت تتحوّل فجأة إلى شخصٍ عنيف، مستعدٍّ للحرب، كأن البرغوث خطرٌ كبيرٌ يهدّد البيت كلّه. كانت تجبرني على قتلهم أيضًا، وتقول لي: "إنهم شياطين صغيرة على شكل حشرة!". لكن حين يأتي الربيع، وتدخل فراشة ما صدفةً في إحدى غرفتنا، كانت تهمس لها بلغة غريبة، وكأنها صديقة قديمة. مرةً، حزنت كثيرًا لأنها رشت مسحوقًا على الأرض في اللحظة نفسها التي نزلت فيها فراشة جميلة.

لم أرها حزينة هكذا من قبل... ولا أفهم ذلك.. أليست البراغيث والفراشات حشرات؟ إذًا لماذا نفرّق بينها؟

أعتقد أن هناك علاقة حميمة بين الجمال والرأفة، أننا نُحبّ ما نراه جميلًا، وربما نرأف به لأنه يذكّرنا بشيء حيّ، بشيء صحّي، بشيء نحبّه. أما القباحة، فهي تذكّرنا بالموت، أو بالمرض، أو بما لا نُحب أن نراه. لكنني، بصراحة، لا أعتقد أن الموت شيء قبيح... فقط هو حزين، وربما صامت جدًا.

كنت واقفًا حينها بتجرثمٍ وجفاف، كأنّي أحد سيقان النخيل المتآكلة في الحديقة المجاورة أمامي. إذ به يباغتني بلكمةٍ مُبرحة حيث استقرت بمنتصف وجهي، لأنكب على الأرض مغميًا عليَّ قرب أعمدة سياج تلّك الحديقة، التي تبدو كأي شيء سوى كونها حديقة. ولا أدري لماذا نسيجها، وما المغزى من ذلك؟ كأنّنا نقول للنباتات فيها، أخضعي أخضعي! فنحن السادة هُنا.

****

أستيقظت بعد عشرون دقيقة على ما أظنّ، مسحت الدماء من على أنفي، شعرت بالإنزعاج بمسحها أكثر من فكرة أنّه قام بضربي، فقد كانت يابسةً وملتصقةً على خدي بشدة. ثم حزمت حقيبتي التي ثُقبت بطانتها الداخليّة قبل حوالي أسبوع، بسبب إثنان من الصف الآخر قاما بجرجرتها من على ظهري، محاولان أخذ مصروفي الذي أستلمه أسبوعيًا، كانا يعرفان أن يوم

الخميس هو يوم إستلامي للمصروف، لأنّهم عندما يحاولوا سرقتي في غير هذا اليوم لا يحصلوا على أي شيء، سوى على بصقي وشتمي قليلًا، كان هذا لا يكفيهم بالقط. رغم أنّني كنت أنتظر إستلامه بلهفة عارمة، مصروفي الذي أتمكن بقدره شراء شطيرة فلافلٍ مع لبنٍ طازج تعده إمراةٌ كبيرةٌ في السن خلف المدرسة. آه كم أنا مشتاقٌ لهذه الوجبة، يا لها من شهيّة! كنت أنصح جميع من يمر بجانبي أن يقوم بتجريبها.

ثمّة شيءٌ في تلك الشطيرة يجعلني أشعر أن العالم ليس بهذا السوء... فقبل حوالي أسبوعين -آخر مرة اشتريت منها- أخرجت من حقيبتي المشقوقة بعض قطع النقود الوحيدة، كنت قد أخفيتها داخل جوربي الأيمن، خشية أن يُفتَّش جسدي صباحًا من أحدهم، كما يفعلوا دائمًا.

كنت أتذكر أني اقتربت من الزاوية خلف المدرسة، حيث تفترش تلك العجوز الأرض، وتضع أمامها صندوقًا خشبيًا صغيرًا، تنام عليه المقالي، وينام في وجهها الغبار.

ابتسمتُ فور أن لمحتها، وقلت لها كأنّي ألتقي جدّتي بعد غياب طويل:

- هل لديكِ شطيرة فلافل، يا حاجة؟

رفعت بصرها، حدّقت في أنفي المتورم قليلًا، ثم تمعّنت في وجهي وقالت:

- ألستَ نفس الولد الذي أسقط دمه مرّة على الشطيرة؟

ضحكتُ، رغم أن الألم لا زال في ملامحي حينها، وقلت لها:

- ليس ذنبي، أحدهم ضربني وأنا ممسك بها

- تعال، اجلس، اليوم سأصنع لك واحدة ملكيّة... هذه وجبة الملوك

جلست على الطابوقة بجوارها، وأنا أراقب أصابعها وهي تكوّر الفلافل الحارّة داخل الخبز الطري، وتضيف بندورة وطرشي وكميّة زائدة من البقدونس كما أحب. وحين ناولتني إيّاها، قلت لها:

- ألديك لبن؟

ردّت وهي تمسح الدهن من يديها بعدما أحرقها قليلًا:

- البقّالة مغلقة، اذهب وأحضر من الدكان الذي يبعد عن الشارع بمسافة مائنان متر، وقل له إن الحاجة قد سلّفتك..

ركضتُ نحو الدكّان، وأنا أحمل الشطيرة كما يُمسك أحدهم كنزًا صغيرًا بين يديه. دخلت الدكان، ورأيت هناك، ابن الصف الآخر، أحد أولئك الذين ثقّبوا حقيبتي.

نظر إليَّ شزرًا وقال:

- ها، عدت لتأكل؟ أنسيت صفعتي البارحة؟

لم أعلّق، كنت أُريد فقط اللبن، وأن أغادر، لكنّه مدّ يده، وخطف الشطيرة من يدي!

- تعال، دعني أجرّبها، تعال، أيها الفأر، هيا!

- أرجوك.. لا... لا...

- سأتذوق فقط، ما بك؟!

عضّ قضمةً منها... ثم تجمّد. عيونه اتّسعت، وراح يمضغ ببطء، كما لو أن شيئًا في داخله قد تغيّر. قال فجأة:

- ما هذه؟ ما هذا الطعم؟

قلت له وأنا أحبس دموعي:

- هذا.. هذا طعم الطفولة التي لا تعرفها، طعم الأمان.. طعم... أعدها!

حدّق بي طويلًا، ثم أعادها لي، وقد بقي منها أكثر من نصفها:

- "سامحني... والله، لا أدري لماذا نضربك كل مرّة... ربما لأنك تستطيع أن تضحك، حتى وأنت مضروب...

لم أعلّق.. أخذت الشطيرة، وعدت إلى العجوز، وجلست على نفس الطابوقة. وبين لقمة وأخرى، شعرتُ بشيءٍ صغيرٍ جدًا، يشبه السلام، يدغدغ صدري.

****

بعد تلك الضربة القاسية، بما فيها من دماء لم أستطع أن أمسحها، برغم كل المحاولات الجادة، حاولت أن أقف على قدماي لمدة دقيقتين، أتمشى تارةً للخلف، وتارةً للأمام؛ لأتأكد من ثباتي، ثم ذهبت إلى مدرستي، حيث كان صخب الطلاب يتدفق بين الممرات، وأصوات الأقدام تختلط بصرير الأبواب الحديدية، والهواء محمّل برائحة الطباشير والكتب القديمة.

دفعت باب القاعة الخشبيّ ببطء، ودخلت إلى قاعة الامتحانات؛ لأجلس على أحد المقاعد الرديئة، أرتب أقلامي، وأُخطط ورقتي، تحضيرًا للإشتراك في أول إمتحانٍ فصليٍّ لي، كأن شيئًا لم يحصل، أو بالأحرى ما الذي حصل أصلًا؟ ضُربت، ما هو الغريب في ذلك؟

****

حينئذٍ، لا أدري كيف، لكن مضى النهار، ليجيئ ليلٍ، ليس مألوفًا، كان يخشى الضوء أن يسير فيه، ليلٌ حالكٌ ومُوسوس، إذ يبدو عليه التيه. كنت فيها مستلقٍ فوق سريري الخشبيّ، أشعر حينها بكل ما آوتي إليَّ من قوة الحواس، بأن هذه الجدران - جدران غرفتي المُتصدعة- تنثني حائمةً نحوي، كأنها على وشك الانطباق. ويخرج مع ذلك الإنثناء همساتٍ غير مفهومة.

لم أعر لذلك أيّ انتباه، بقيت اكمل واجباتي المدرسيّة، فوقعت عينيَّ بغتةً على بعض الصور المرفقة فوق حاشية الكتاب. كان مفادها أن رجلًا بدا يمسك بيديه بعض الأدوات الهندسيّة لقياس زوايا المباني ورسمها على الورق المُخطط، ورجلٌ آخر يقبض زمام الأمور في حسابات السوق، ويرتبها كلٌ على حدة. وبجانبهما إمرأتان، أحداهما تتسكّع بفخرٍ وسعادة بين الصّحون الوسِّخة، والآخرى تُداعب أطفالها النائمون الرُضع وهي تغني بترنمٍ تستطب له القلوب.

حينها أقتحمني شعور شديد الغرابة، ينبهني على هجر التقاعس، ساريًا نحو سؤالٍ لطالما لمع مُسبقًا وبقيت معه خاوي الوفاض، وكعادتي لم أكتفِ إلَّا محاولًا سد رغبة السؤال المُلحة.

كانت أمي جالسة أمام جهازها الذي تخيط به الملابس، قد عاد وجهها يحمل لونه الطبيعي، وعيناها مفتوحتان واسعتان كعادتهما. خيوط ملوّنة تتدلى من أصابعها، وقدمها تضغط على الدواسة بإيقاعٍ ثابت. رفعت رأسها نحوي فجأة، تلك النظرة الحادة التي أعرفها، فارتبكت في مكاني. لحظتها فقط، شعرت أنّ النخلة التي سقطت في مخيلتي قد وقفت من جديد.

لذلك لم أتردد، قفزت إليها مسرعًا لأقذفها بثقل تساؤلي الذي أتعبني حمله، فردت عليَّ بشيء من الأستغراب يتبعه لون من الهجوم المُريب:

- إن المرأة لا تغدو سوى كونها ربّة منزل، لا تفهم بهذه المجالات، وأن واجبها يقتصر على الأعمال المنزلية وتربية الأطفال فقط، وهكذا أراد الله منذ فجر العصور

صمتُّ قليلًا.. كأن الفكرة لا تريد أن تخرج، بل تريد أن تتنفس داخلي أولًا، ثم فكّرت قليلًا مُعقبًا على كلامها بلهجةٍ تضمها حيرة كبيرة:

- لكن يا ماما.. من... من قال بأنّ ذلك ما يناسبها فقط؟

- ماذا تقصد؟

- ما الذي يحدد قصورها في أن تكون غير ذلك؟

- هل أنت غبي؟ أصمت! أصمت يا أيّها الأحمق، كيف تتسائل عن شيءٍ بدهيٍ كهذا؟

أخذت توبخني ذهابًا وإيابًا، مُنتفخة الأوداج، لا تهدأ، تُردد وبكل إنحيازٍ أعمى، أنّ ما قلته زندقةٌ لا إنتفال منها إلَّا بتلو الصلوات والاستغفار إلى حد الأعياء كل يومٍ جديد.

كنت أسمعها وأشعر بثقل كلماتها يضغط على صدري الصغير، مع أني لم أفهمها تمامًا، لكن قلبي كان ينبض بقوة، لأني كنت أعرف أنني وقعت في مشكلة كبيرة، لأنّ كلامي كما قالت: "لا يتفوه به إلا المجحد عن الإيمان والمتريب له".

آهٍ، ماذا تقصد؟ بدا لي الكلام أكبر منّي، كأنني أحمل شيء ثقيل فوق رأسي، أحيانًا لا أفهم لماذا الخوف من مجرد تساؤل عن أدوار الرجال والنساء، وكأن هذا السؤال خطر يهدد العالم كله. ومن هُنا، يكون هذا على التقسيم الأجتماعي لأدوار الجنسين، -بالنسبة لها- طريقًا هواءه ندسٌ وذريع.

كنت.. كنت أشعر أن كل خطوة أخطوها في تساؤلاتي هذه، تُقلّب ذهني وتُربك أفكاري التي لا أدري ما منبعها، وكأنها لغز كبير لا أجد له مفتاحًا. لكن الأكثر غرابةً منه، أنها كانت تقولي لي "هذه أفكارك ستقودك في نهاية المطاف، إلى الكفر بديننا الحنيف".

كلمات ثقيلة، لم أكن أعرف كيف أفسرها، لكنها تزن فيَّ بالحيرة والقلق.

وعبارتها الأخرى، ماذا قالت؟ نعم! تذكرت، هذه العبارة أكثر رعبًا من السابقة، "يا أيها الغبي، سينتهي الأمر بأن يكون كلامك أعتراضًا فاتكًا على ذات الله العُليا".

كانت تلك الجملة -الأخيرة تحديدًا- مثل صوت رعد بعيد، يصعب عليّ فهمه، لكنه يملأ نفسي برهبة لا تزول، وكأنني أمام شيء أكبر مني بكثير، لا أملك سوى الصمت والتأمل. كنت أجيبها متهاونًا، محاولًا المواءمة مع غضبها، خائفًا من أن تضربني بالعصا المتيّنة التي كانت تستعملها في الشواء ليلًا. كنت أرتعد، لأني صغيرٌ لا يقوى مواجهة غضب العالم كله، أو ربما أنا لست صغيرًا بما يكفي، لكني أيضًا كنت أسأل نفسي في صمت، لماذا كل هذا الخوف من سؤال؟ وهل من حقّي أن أتساءل؟

كنت خفيفًا، لكن أفكاري أكثر ثقلًا للغاية، ورغم ذلك كنت أرى العالم بعيني طفل، مليئًا بالدهشة والحيرة، أحاول أن أفهم ما لا يفهمه الكبار.

آهٍ كم هم مخادعون! أشعر في لحظتي هذه، أنني قشرت نواياهم وشرحتها بعنايةٍ فائقة برغم سنّي وهيئتي المضحكة، أنا! نعم.. ولما لا؟ أنا استطعت ذلك، فها هم يعلمونا أن نكذب ونصدق هذه الأكاذيب الفاسدة. يعوّدونا التغذيّ من أطباق النفاق، والإزدواجيّة الرهيبة؛ ثُم يطالبونا بعدئذٍ -أي بعدما نبلغ سن الرشد- أن لا نقول سوى الحقائق فقط، ذلك يبدو لي فوضويًا للغاية، أوليسوا هم من أعدموا معنى الحقيقة أمامنا مُذ كُنّا صغارًا جدًا؟ فكيف سنفهمها لاحقًا؟ إلَّا إذا كانوا يقصدون بالحقائق، هي الأكاذيب التي تم الإتفاق عليها.

أثناء هذا الجدال الذاتي المتورم، كانت أختي الكبيرة مريم تتابع وتتلصص بصمتٍ حازم إلى أن غادرت أمي المائدة، لكن ما يدعو للرعب، لماذا لم يختفِ ظلّها معها؟

بقيت مرتجفًا، أكاد أختنق بريقي السّاخن من ضربةٍ لا أدري متى يأتي زمانها، لكنّها ولحسن الحظ، لم تأتِ. تقربت إليَّ أختي بخطواتٍ هادئة، وبلمساتٍ سمحة لتخفّف هذا اللّغو الذي يستعمر رأسي:

- آهٍ يا صغيري محمد، متى تتعلّم أن تغلق فمك؟ ألا تسأل، كم أنت مسكين.. رغم أنّك لا تتكلم كثيرًا وتقضم الحرف قبل نطقه، لكن ما تقوى على تلفظه، قادر على بلّبلة المكان وهزّه!

واجهت نفسي لأرتب شيئًا أقوله بشكلٍ مسموع بالنسبة إليها، لكنّها أخذت بي بين ذراعيها الدافئتين وتهمس بأذني بشفقةٍ مريرة:

"يا حبيبي، يا لك من مسكين، آهٍ كم أنت مسكين".

أجبتها والدموع تنهال بغضبٍ عنيد:

- لا أعلم لماذا لا يحبوني، لماذا لماذا يا أختي...

- تعلم كيف تدير مناورات الصمت لتنجو، والآن عليك أن تكمل فطورك وتذهب إلى المدرسة، لم يتبقَ لك الكثير من الوقت.

- حسنٌ..

(البارت الثالث)

وُلت هذه الأيام ولا أدري كيف حدث الأمر، أنّه لزمانٍ يطوف على حافة الوجود بروحٍ شبحيّة ولا شيء غير ذلك. إذن لا بأس، فأنا في الباص متوجهًا إلى مراسيم التخرج الموغلة بشيخوخة العقل والمنصلخة عن أي إبداعٍ ذاتيٍ نامٍ من الإمعان والتفكير. حيث لا شيء تصادفه سِوى هذا السكون المُزدحم باللّهاث.

وأنا، كيف سأستطيع أن أُقيل بصري ليتنحا جانبًا عن ذلك البدين الذي يُحاول التستر على أطنان اللّحم المترهل فوق فخذيه، وهو يلتفت كالأبله مُقنعًا نفسه بأن ليس هناك من يُلاحظ رائحة الغباء التي تعجّ منّه، وتلّك الحمقاء البليدة التي تغير أحمر الشفاه بجنونٍ يستدعي الحفيظة كُل دقيقتين، وهذا السّائق الذي يُعاني ويعيش موقفًا مأساويًا بسبب ربطة العنق السميكة، رغم أن السماء تمطر لهيبًا. آهٍ من هذا الإندفاع العارم من أجل الحياة فحسب. يا لمأساتهم.. كلهم غارقون في فكرة أنهم مميزون في لحظتهم هذه وأنهم كائنات مغايرة، عوضًا عن كونهم يرون أسياد الارض.

لم أكف عن مشاهدتهم.. وبينما يلتهم بصري هذه النماذج المتنافرة أمامي، خطر لي أن ما يجمعنا جميعًا، رغم أوهام التميّز، ليس إلا ذلك الحيوان الراقد في الداخل، يحرّكنا بذات الرغبات القديمة، وكأننا لم نتجاوز بعد غابة أجدادنا الأولى. ومن نفس هذه الرغبات تنشأ رغباتٍ أخرى أكثر تمايلًا وتبخترًا مع كل إرتقاءٍ وصعود في سُلم الوعي المُخيف، ومع كل إرتقاءٍ ألم يضاهيه، وجعٌ، وحسٌ يستشعر النقص.

نعم، إنَّنا وبالملاحظات المُسبقة مع باقي الحيوانات، نُدرك تلك الفجوة بعمق، إذ ينصاع الدب الشرس أو العصفور الصغير إلى هاوية المعاناة البدائيّة الناجمة من تلك الإندفاعات المتأصلة التي لا يستطيع توجيه رماح السؤال إليها، ويتمادى على طبيعته ليفهمها بشكلٍ تجريدي. عكس ما نفعله نحن مع أنفسنا، نلومها، ثم نتسائل على ما نستطيع فعله في لحظاتنا التي تحدد مصيرنا، وعند لحظات الفشل الكبيرة.

آهٍ منهم، أريد أن أعرف شيئًا واحدًا، شيئًا يعذبني عدم معرفته حقًا. لماذا؟ لماذا عليهم أن يعيشوا هذه العذابات التي مدت مخالبها إلى مهاجع السكينة سواء كانوا يقظين أو أخذهم العواء الداخلي إلى النوم، أريد أن أعرف لماذا هذا التهبهب أن كان شتم البعوض في الصيف، عند إنطفاء الكهرباء وفي أوقات النوم، لا يجدي شيئًا سوى تكديس طابورٍ من الحقد ونفضهِ على جميع الموجودات حتى الجمادات منها، كما نفعل ذلك دائمًا مع من هم أقل منّا، وأكثر ضعفًا. وكأن هذه اللحظات الصغيرة، التي نظنها عابرة وبلا أثر، تُعيد تشكيلنا بصمت، وتصبّ في نهرٍ واحد من الغضب المتراكم، الذي يتسرب في النهاية إلى طريقة نظرنا للعالم، وإلى أولئك الذين لا حول لهم ولا قوة.

ولماذا هذا الميل ذي المائة صوتٍ لا تألفه أذهانهم، يجعلهم يقفون بإستخفافٍ مُقنّع أمام وخزات الضمير من غير أن يدركون بأن هناك عواقب وخيمة حينما يتجهون بزهوٍ راكبين أمواج الكراهيّة، ويجدفون بجشعٍ وحميّة، دون أن يرسو على جُزرٍ خضراءٍ ومُشرقة، تُدعى سابقًا بأسم "الحُب"؟ لماذا وألف لماذا...

ها أنا ذا أتقيأ الكلمات من غير أن أقاوم هذه السموم الوجوديّة التي تنفثها المقاصد الثقيلة في أفق القلب التعيس، بطيشٍ سنجابيّ يقفز بأضطراب غير مقيد من غصنٍ إلى آخر، بدون أن أوصد باب الأنفعالات في وجه رياح ولهب الآلام المستمرة. وأسفاه.. أي حديثٍ هذا الذي لا يجعل آفة الخداع تزول بعد الإشباع النتن، أي سباتٍ هذا، أي أفكارٍ جوفاء تلّك التي تجعلنا نتكلم بصوتٍ مُتجمد، إذ عليَّ أنا بالتحديد، وبرغم ما أحوزه من خبرةٍ إنسانية قليلة، أن أدعو لنا بأن نتمرس المكوث بين وحل الأسئلة، ونتأمل بشدة، متى يقف الإنسان على أبعادٍ من غباوة الوحوش الملطخة بالشهوة المُفرطة ومتى يعلو فوقها.

****

رغم تحفظي على هذا الشكّ الدؤوب، بأن هذه السنوات التي مضت لم تمر، كانت أشبه بومضةٍ لا تدركها الحواس، كذبة تفرض نفسها على عقلي لأكون حليفًا لها بإخلاصٍ تامٍ مُطلق. وهل لي الحقّ الكامل أن أرفض تصديقها بدون أي مُبررٍ ما؟ أتعلمون ما يفزع حقًّا، إنه وبالرغم من هذا الارتياب المتجذّر، ثمة شيء خفيّ يُلحُّ علينا دومًا، كما لو أنّه يهمس في تجاويف الوعي قائلاً: "تابع، لا تتوقف... استمرّ!" وهذا ما يجعلني أتسائل، لماذا نحن بالتحديد، نحب أن نستشعر بأنّنا يجب علينا أن نحيا بكل ما لدينا من قوةٍ للحياة، عوضًا عن كوننا بالفعل كذلك. لقد اتعبني هذا السؤال يا إلهي.. أنهشني، ماذا أفعل؟ إن الفظاعة بالنسبة لي، ما هي إلَّا أن يستمر المرء بحثًا عن سُبل النجاة حتى يبدو من الخارج كأنّه محصنٌ ضد الفناء، رغم أن هناك في الدرك المُظلم من النّفس صوتًا داخليًا يسخر بشدة ويُدلي بإعترافٍ آخر، قائلًا بأن أول من ينتحرون في مواقف الخيبة، هم الذين خدعهم بريق الحياة، المتمسكين بها بإلحاحٍ كبير، هؤلاء المتفائلون الحمقى.

لكننا للآسف سنبقى لاهثين عن معنىً يهز شيئًا ما في أعماقنا العتمة، ونحيط حياتنا بزوبعةٍ من الأوهام التي لا نستطيع أن نغادر منها إطلاقًا، ولا يتحرر أحدٌ من قوقعة الشغف الخبيث هذا، إلَّا الذي رافقته رغبةٌ في الإنتحار، الانتحار؟؟ ولما لا؟ إنه، وبحسب خبرته العميقة، والمُمتدة من أكثر نماذج تجاربه ثقلًا وألمًا، هو الأكثر صلابةً في فهم بنيوية المعاني، لكونها ليس لها وجودٌ مستقل بذاته، وإنّما هي من إعتبارات الإنسان وإسقاطاتهِ الفوضويّة على الأشياء، كي لا يمضي بين مسارح الوجود العتيقة جامدًا مُتعفنًا، لا تحزنه المأسي ولا تضحكه النكات.

وتجعلني تلّك النظرة في فهم الأشياء... تجعلني أشعر بالشفقة والغثيان إتجاه أي شيءٍ يدور حولنا، ولا أدري من هذا الذي يتحدث نيابةً عني؟ أنا؟ آهٍ.. سأحاول الإنصراف عن هذا الضباب الفولاذي الذي يفقدني الإرتباط مع ما هو موجود في الخارج.

فها قد وصلت للتو للشارع الذي يمتد قليلًا من جانب الباب الرئيس من الجامعة، ثم بدوت أركل قدماي بأفكارٍ أكثر تشاؤمية لأهمَّ بالرحيل. لكن، في هذه الثواني المريدة غدا القلب مُشتاقًا للعم عيسى، نابضًا بسؤاله المفجع للنّفس ومُهددًا لأسس ثباتها:

"أيّن هو الآن؟"...

كم أكره غرفته، تلّك المتكونة من رخام الأثاث المُمزقة، شقوقها بيوت جرذٍ مُطارد، تكسوها من كل جانب رائحة البيض الفاسد، وملعقته ذات الأعوجاج، تصيبتي بالذعر لكنّه يضعها أمام خصر أمراةٍ ناعمة، يغازلها رغم أنّه أعدّها بنفسه من خشبٍ هشّ مثقوب.

ذهبت بالقرب من قلعته -هكذا يُحب تسميتها، قلعةً أو شيئًا من هذا القبيل- مُناديًا إياه وصدى صوتي يرتد من دون أن يحمل معه جوابٍ منه، إلى أن أخذت قدماي تسبحني بغير وعيٍ إلى فوحة غرفتي، ليس لأنها شهيّة، بل بموجب الأعتياد والتأقلم.

ثم بعد كيلو مترٍ -على ما يبدو- إذا بي ألمحه مُتعرجًا بين عشرات المارين وهم يرمقونه بنظراتٍ تدعو إلى الإستهزاء، ولاح لي من بعيد توهجًا ضئيل. فقد كان يحمل بيده مصباحًا صغيرًا عند الساعة الثانية ظهرًا:

- ما الذي تفعله يا عم، الشمس تضيء الشوارع، فما حاجتك بالمصباح؟

- أبحث عن شيءٍ نادر

- عن ماذا؟

- إنسان

كان يمشي وحيدًا، لا منكسرًا ولا حزين؛ بلّ هادئًا جدًا، خطوته متعرجة، يميل بجسده النحيل كلما رفع ساقه، كمن يحاور الأرض بحذر رهيب. عصاه الخشبية تنقر الرصيف بنغمة غريبة، لا متسرعة ولا بطيئة، كأنها توقظ الأرصفة من نومها. الناس تتدفق حوله، شباب يضحكون بصخب، الأولاد يتراكضون بين الأكشاك، رجال بعجالة يصرخون في نسائهم، وهو... وحده يمضي كأنه في فراغ لا يخصهم. ووجوههم تمتلئ بالانشغال، كأنهم في سباق أبدي نحو لا شيء، أما هو، فتطفو على ملامحه مسحة ارتياح بارد.

نظرات عابرة تصطدم به وتعود خالية، لا أحد يُلقي عليه بالاً، وربما يظنونه مخبولًا، مشردًا، قطعة غبار على هامش المدينة. لكن في عينيه شيء آخر، سخرية ناعمة من هذا الركض الجماعي، وخطوة ثابتة لا تعرف العجلة، لا تعرف الخوف. كان يمضي، أخف من عار العابرين، وأثقل من حكمتهم المزيفة.

الضجيج كان كالعادة، عربات تدفع نفسها بزفيرٍ ثقيل، روائح "كليجه" محترقة تبيعها إحدى النساء، وصراخ أطفال يُشبه طنين الذباب. لكن وسط كل هذا، وقف العم عيسى، بثوبه الرماديّ الباهت، عصاه التي تُحدّب مع الزمن، وعينين توزّعان الاحتقار مثلما توزع المحالّ كتيبات الطعام.

رفع رأسه... ثم خطا ثلاث خطوات نحو منتصف الساحة الصغيرة. دقّ عصاه على الرصيف، صوتها كان نحيفًا، لكنه شقّ الصخب مثل شقّ السكين لماء راكد. استدار بجسده النحيل ببطء كمن يلفت انتباههم عنوة، كمن يفتعل لحظة مواجهة قسرية.

ثم صرخ، صوته لم يكن قويًا بقدر ما كان شاذًا وسط الأصوات المعتادة:

- يا بُني، إن الإنسانيّة غدت شيئًا غسقيًا، فمنذ نسج العنكبوت أول خيوطه فوقها وتماهت مع حبوب الغُبار البُني، وتمددت برفقٍ في إحدى ثقوب الجدران المُوحشة، من دون أي معارضةٍ أو مجابهةٍ أخلاقيّة. هُنا تيقنت بأنّنا نتوجه بإفتتاح عصرٍ جديد، سنأتي فيه بدافع المجاملة؛ أي أن نُجامل إنسانيتنا بجعلها موضوعًا تأريخيًا وأثريّ، نضعها في صناديق زجاجٍ شفافة، التي نجدها تملأ متاحفنا المرموقة. لكنّها؛ وعلاوةً على ذلك، موضوعاتٌ باردة، لأنّنا أبتعدنا كثيرًا عنها، حتى بدت لا تربطنا بها أيَّة صلةٍ مُشتركة.

الباعة جمدت أياديهم للحظة، امرأة تحمل كيس طماطم توقفت في المنتصف، شابٌ كان يدخن كاد أن يحرق أصابعه. الأصوات خفّت، لا سكون... بل ذلك الارتباك حين يُقال شيءٌ لم يعتادوه. أكمل كلامه:

- إن مسرحية الأخلاق قد إنتهت أحداثها، وأقتربنا من نزول الستار. فها أمام أعيننا، نرى خشونة الضمير كيف أطاحت بالوجود الإنساني وأسقطته بمقتضى السهولة. بما في ذلك، جميع حالات التديّن، أن كانت لا تتجلى بنيّةٍ حسنة وإيثارٍ حقيقي، لهي بضاعةٌ مغشوشةٌ، لا ترقى أن تكون حلًا لتخفّف من وطأة هذه التشنجات الوجدانيّة والإرادة المُتعفنة. لكن؛ وكما تنمو على المنحدرات الحادة أندر النباتات وأكثرها رفاهةً، سيُولد من يُحرر هذه العقول الخاملة، عقلٌ متفوق، عقلٌ مهيئٌ لحياكة أخلاقياتٍ تُعيد سلالتنا القديمة، ويضفو عليها من خيوط عباءات الملائكة شيئًا يَسير. إنّه يا قوم؛ مُولد النزاهة، بحلّة مُستحدثة، وشرنقةٍ جبارة. هيا لنقف ونصفّق بشبقٍ عالٍ، مُرحبين بهذه الخُرافة العجوز التي حكيتها لكم قبل قليل. وبنفس الحرارة، أبصقوا عليَّ، لعلّي أستعيد وعيي، وأخرس قليلًا.

صمته المفاجئ كان أشدّ من خطابه؛ ثم انقلبت المدينة عليه:

صرخ شاب بدين وهو يعيد سيجارته لفمه :

"مجنون..!"

امرأةٌ تمتمت:

"حرام... مُختل."

بائع قهوة صرخ من عربته:

"امضِ من هنا، لا تُخيف الزبائن!"

ثم بدأت النظرات تتقاطع، بعضهم يضحك، بعضهم يشير باستهزاء، بعض الأطفال ركضوا خلفه يقلّدون عصاه وحركته، والنساء يسحبن أطفالهن خوفًا منه. وبين كل ذلك، وقف العم عيسى صامتًا بثباتٍ، كأن الهزءات لا تخترق جلده، كأن الشتائم تتبخر قبل أن تمسّ رأسه.

وانسحب بهدوء...

****

بعد وقتٍ قصير، ونحن نعبر الشارع تلو الآخر، لم أكن ألتفت كثيرًا إلى الطريق بقدر ما كنت أراقب عم عيسى بجانبي. كان يمشي بخطوات ثابتة، عينيه تحملان حكمة عمر طويل، وأحيانًا كانت تنحني شفته بنصف ابتسامة خفيفة لا تفارقه. هو الآخر كان يراقبني بين الحين والآخر، يتفحص وجهي كما لو كان يحاول قراءة ما خلف عينيّ، فتبادلنا نظرات قصيرة، حملت في طياتها صمتًا يملأه فهم غير معلن. في هذا المشي المشترك، كان الطريق مجرد خلفية، واهتمامنا ببعضنا أكثر وضوحًا من كل حركة حولنا.

سمعنا نداءات امرأةٍ في الشارع المحاذي لنا:

"أركضوا! ابني... ابني ستبتلعه المياه! أرجوكم! من منكم يستطيع إنقاذه؟!"

كان صوتها يخرج متقطعًا، تتناوبه شهقات يائسة، وكأن حنجرتها تخدشها الحجارة. كانت تركض حافية، عباءتها مبتلة من الأسفل وتلتصق بساقيها النحيلتين، يديها ترتجفان كجناحين مكسورين وهي تشير نحو النهر. بين كل صرخة وأخرى، كانت تلهث وتكاد تخرّ على ركبتيها، لكن الخوف كان يسندها كعكاز خفيّ.

وسط الجموع التي ازدحمت حولها، كان وجهها شاحبًا لدرجة أنك تستطيع أن ترى كل شعرة في حاجبيها ترتجف، وعيناها كانتا فوهتين من فزع، مفتوحتين إلى الحد الذي بدا فيه الجفن وكأنه لن يعود للإغلاق أبدًا. كانت تمسك رأسها بيديها بين الحين والآخر، تضرب بهما على جبينها في إيقاعٍ هستيريّ، كأنها تحاول إيقاظ نفسها من كابوس، لكنها تعجز.

حين قفز العم عيسى من فوق الجسر، كانت تتبعه بخطوات متعثرة، تصرخ اسمه دون أن تعرفه، وتبسط يديها في الهواء كأنها تحاول أن تشدّه من بعيد، أو تلحق بابنها عبر موجة من الصرخات. وعندما أخرجه من الماء، ركضت نحوه وهي تتلو دعاءً غير مكتمل، الكلمات تتعثر وتتداخل حتى بدت كأنها نحيبٌ بلغ أقصى حدوده.

أمسكت وجه ابنها المبلل بكلتا يديها، تشم أنفاسه، تبحث عن رائحته بين البلل والطين، وكأنها تتأكد أنه هو حقًا، أنه عاد من الحافة التي لا رجوع منها. ثم انحنت على قدمي العم عيسى، تمسكهما وتغمرهما بقبلاتٍ سريعة يختلط فيها العرق بماء النهر، وتردد بين شهقاتها: "الله يطوّل عمرك... الله يبارك فيك... الله يحفظ أولادك..." وكأنها تحاول تعويضه عن كل شيء فقده في لحظة واحدة.

لكنّه اكتفى بابتسامة قصيرة، عيناه تنظران إلى شيء بعيد، وكأنه لم يفعل سوى أمر عابر، ثم تركها واقفة هناك، يداها ممدودتان كمن يحاول الإمساك بظل، وعاد إلى كرسيه بهدوء، ووضع يديه المُبللتين على جانب طاولتنا التي لو افترضنا أن للطاولة عيون، لكانت تمتلأ بالعجب مُذ باشرنا بنطق أول كلمة.

جاءهُ نادل المطعم بجأشٍ وشفتاه تصفّق بذهول غير مُتكافئ:

- يا لك من مغوارٍ فذّ.. بهذه التجاعيد والترهلات الجمّة، أستطعت أن تفعل ما لا تستطيعه أجسادنا برغم نشاطها. أنت.. أنت إنسان فاضل!

نظر له بما يشبه الإحتقار المُعلن:

- من قال لك بأن الأمر متعلقٌ بحيويّةٍ جسديّة؟

أحدثت نبرته إنهيارًا مدويًا وزلزلةً عنيفة. وقبل أن يعول لسانه على التفوه بشيءٍ، أردف قائلًا:

- ألم تسمع من قبل "بحيويّةٍ أخلاقيّة"؟ بلى، لم تسمع، كيف ستسمع شيئًا قد قطفته من الأعالي الشاهقة؟ أنّه لشيء مُحزن، أن لا نشاهد هذه المفهومات الأخلاقيّة النقيّة، وهي تضرب بجناحيها المُتلألأ والبرّاق، عندما تتردد بسماحةٍ سليمة في كل ثانيةٍ فوق حياتنا التافهة. أن لا ننطرب لحفيفها النقيّ، أن لا ينتابنا الفضول بأن نرفع رأسنا فوق الحنجرة قليلًا، ونُبعد تلّك الأغصان السّامة ولو بأصبعنا الصغير، لنفهم على نحوٍ واقعيّ ماذا يحصل فوقنا. فإذا ما نمت أجزاء البلاهة الظاهريّة، ستُعيق من هم ذي رؤوسٍ فارغةٍ ومجوفة، رؤية تلّك السلالم الفخمة. ولا تسمح بوضع مجالٍ ما لأن يواصل لمعان العقل جرّيه الفريد لتلّك الأفكار الصّلدة، لكي نعطيها نحن بعد إكتشافنا لها، وبدافع الإجلال، رئةً تناسب منظومتنا الوجوديّة لكي تتنفّس. ولكم سنعيش دون أن يزور في سطوح خواطرنا رجفة الإنتباه الزعج إلى ذلك؟ وهل هُناك أفظع من هذه اللّا مسؤوليّة؟ كلّا، لربما لا ندرك تلّك النكبات الجارفة. لكن، مرحى لمن يلوح بصبرٍ باسل، ويحاول أن يعبر نوافذ الحقيقة بغير وسائل وقائيّة من حدّة زجاجها المتفرع كالأشواك بكل زواياها وإنحنائاتها. ومن غير إكتراثٍ إن كانت أطرافها مُشوهةً بهبوة النوايا الفاسدة والملطخة بالدماء الخبيثة وبقايا ثياب من أرادوا الوصول إليّها بعزمٍ غير رزين. لأنّها؛ وبجميع المحاولات الفاسقة التي سبق أن بدت، ستبقى حقيقة.

- طلبت بعض الفطائر على ما أتذكر؟

- نعم.

لم يبدو لي كهلًا، كان يجلّس بوقارٍ وحِلم، أشدّ جراءةً من أي رجلٍ في العالم، وهو على إستعدادٍ أن يُجادل أي شيء. فقد كان يعلم علم اليقين، أزمة عصرنا التي ليس لها مثيل. لكن ذكر شيء، ما هو هذا الشيء؟ الفضيلة؟ نعم، الفضيلة، لكن ما الفضيلة؟

فجأة، تحركت يده كما لو كان يمسك بشيء غير مرئي، وقال:

- ماذا دهاك! أخفض صوتك!

ارتجفت شفتيّ قليلاً، وحاولت تهدئة نفسي:

- صوتي؟ بهذا الضجيج؟؟ لكنّي لم أرفع صوتي، أنا أفكر فقط

اقترب قليلاً، وعيناه تتفحصان وجهي كأنهما يقرأن أفكاري:

- نعم، سمعتك، فهل تنوّي قتلنا؟

جُمد النّبض حينها، وتصلّب كقطعة ثلجٍ صغيرة. أخذت أتنفس بصعوبة، ثم رأيته ينفجر ضحوكًا، متهلّلًا بطريقةٍ ماردة، يميل برأسه قليلًا إلى الخلف، ويومض بعينيه:

- كيف ستقوم برفع بَيرق الحقّ الشريف طالما بلعت لسانك في أول مواجهةٍ طفيفة؟

ارتعشت يديّ، وحاولت أن أجد كلمات، فقلت:

- حسنّ، أريد أن أسألك عن..

ابتسم ابتسامة يشوبها الشر، ثم أومأ برأسه كإشارة للتأكيد:

- الفضيلة؟

- كيف عرفت ذلك؟؟

تنهد ببطء، ورمى نظرة سريعة نحو السماء، قبل أن يعود بعينيه إليّ:

- لأنّك الآن تمر في أول طورٍ إنساني، تتهجى للمرة الأولى، وهذا ما أسميه أنا "التهجئة الإنسانيّة"، لا تقلّق، أمامك الكثير ثم بعدها ستغدو إنسانًا، الإنسان الوحيد بيّننا

حاولت أن أُركز على كلماته، مدهوشًا:

- الوحيد؟ وأنت؟

اقترب قليلاً، رفع يده كما لو كان يرسم خطوطًا في الهواء:

- أنا تجاوزت إنسانيتي فيما هو فوقها بمرحلاتٍ مُتقدمةٍ أكثر مما فعلها أي مخلوقٍ آخر، بدوت لا أحتاجها البتّة. سمني ما شئت، رسولًا ما، رسولًا قد قرأته في بعض الكتب المُقدسة. لكنّ أنتبه! لا تضعني مع رسولٍ لا يغضب!

ارتعشت حاجباي، وسألت بهدوء:

- الغضب؟ إنّه لطبعٌ يجعلنا لا نمرّ بُهدىً واعتدال، فقد تخرج منّا أشياءً نخشاها، أشياء أكثر شرًا مما سبق أن فكرنا به أو فعلناه

انحنى قليلاً إلى الأمام، صوته صار أعمق:

- بالفعل!! ولهذا أنا غاضبٌ في أغلب أوقاتي، لكنّه يا بُني "غضبٌ مُنظم". الغضب يفضح لنا عوراتنا الكامِنة، ويُزيل قُطع الحرير الخلّابة من فوق مخالبنا بسلاسةٍ وديعة، ولهذا فهو سَامٍ ونبيل. يُطهر رحمتنا من أوهامها الوسيمة، ويُكشف لنا أصالتنا أكثر من أي وقتٍ مضى. كأنّي أراك تظفر عن أول تعليمٍ أخلاقيٍّ لك، وتفضّل الوهم؟؟

لقد اختلط صوت عربات الدراجات النارية مع خرير مياه النهر القريب، ورائحة الشاي الساخن تتصاعد من عربة بائع يمر بين الناس. متسولون يجلسون عند زوايا الجدار، وأصوات الأطفال تملأ الشارع وهم يركضون خلف كرة مهترئة. فوق كل هذا، صدى نوافذ المنازل المفتوحة يتقاطع مع نعيق النوارس التي تحلق قرب الضفاف.

آهٍ.. يا لبؤسي، رغم إنّه يستنشق العطب، التجرذن، وكل ما هو مُدعاةٌ للأضمحلال. لكنّه يجيد فن القبض على الوقائع، ويروض كُل دُبٍ فكّري ببساطةٍ خارقة، يدوس فوق هذا الرّهط من القناعات القنوطة بخبرة مراوغٍ مُحتال، لكنّه؛ ولسوء الحظ، الأكثر صُدقًا بيننا. مهلًا، لم يجب على تساؤلي حول ماهيّة الفضيلة. إذ حينها أستعدتت من الداخل لأخرج ثباتًا مُزيفًا بنبرةٍ تملأها الوثاقة:

- كلامٌ جميل يا عم، لكن لم تجبني على سؤالي، ما هي الفضيلة؟

- لماذا أنت في عجالٍ من أمرك؟ سيأتي يومٌ ما وينكشف لك الغموض. أما الآن فلنذهب إلى مكانٍ آخر، لنعرّيه أمام مثالبه ونجعلهما يقفان وجهًا لوجه خجولين.

- إلى أين ترغب في الذهاب؟

- الجنة.

(البارت الرابع)

"المُعتقدات الزائفة التي يسخر منها العقل المحض هي التي قلبت موازين العالم".

قالها العم عيسى بصوت خافت، لكنّ كلماته انسلت كشرخ في زجاج الهدوء. كانت الشمس تلفظ أنفاسها الأخيرة على أرصفة مسجد الأمين. الباعة يفترشون بقايا النهار؛ أكوام برتقال تتوهج تحت الضوء الخافت، وامرأة تُساوم على سعر السمك وهي تمسح عرق جبهتها بكمّ قذر. فتى مراهق يضرب علبة صفيح بحذائه المهترئ، فتتصاعد نغمة خشنة تضرب جدران المحالّ النائمة.

من داخل المسجد، ينثال صوت إمام يقرأ دعاءً أعتدنا سماعه، فيتماوج صوته الرقيق مع أصوات الباعة الصاخبة وروائح الزيت المحترق. أما العم عيسى... فكان يمضي بينهم كظلٍ قديم، ظهره مقوس كأبواب الأزقة العتيقة، عصاه تطرق الأرض بإيقاع بطيء، كأنها تُعدّ أنفاس المدينة.

كل خطوة منه كانت تمسح عن وجهه ابتسامةً ساخرة، مزيج من الانكسار والبهجة، وحين نطق جملته تلك، رفعت السماء نفسها لونها البرتقاليّ المُغبرّ، كأنّ الشمس تبتلع صراخه الصامت هذا، والريح تدفع أمامه ورقةً ممزقة علِقت تحت نعاله، خائفة أن تتوقف.

رددها "المعتقدات الزائفة التي يسخر منها العقل المحض، هي التي قلبت موازين العالم"..

مرةً تلو الآخرى...

ورغم ذلك، ظل يعترف بجميلها للنّمو البشريّ، تلّك الأكذوبات التي ما زلنا نمارسها مُنذ الأزل بنفس الإحترافية والتشويق، مُعترفًا بإنّه الوحش الشنيع لهذه الديمومة المُستقرة والمُهدد الأول لتواجدها، ويقصد بذلك -كل المعتقدات التي نعتقد بها-. إنه؛ وبكامل إزدراهُ لها، لم ينكر آثارها العظيمة، فقط كان ينوه على أن احتياجنا إلى الإعتقاد، يلازمه بنفس الشرخ إحتياج إلى التفسير. ومن هُنا، أنطلقت جميع الخرافات، وكسرت أغلالها، لتعطي نفسها بعد ذلك، حضورًا واقعيًا ومكانةً مُحترمة.

لقد ظل طوال النهار يكرر عليَّ ذلك، قبل أن يفرش جسده المنهك على شاطئ النوم الرطب، مُستعينًا بصيغٍ شتى، لكن الصيغة التي حفرتها الذاكرة كانت: "يا بُني، إن اعتمدت البرهنة والنقد القويم مع عموم الجماعة، ستهلك، وستهلك كل شيء معك. فعواصف المنطق ستغمر أعمدة الحضارة."

كان يسوق الأشياء أن تُرى مثلما يُفكر، فهناك من الإجتذاب ما يجرّ القناعة بتلبيةٍ مُذعنة أن تحتفظ بهذا الكلام المثير للغاية. لكن من منّا يستطيع أن ينكر ذلك! أن ينكر -على الأقل- تلّك الهندسات المذهلة من صَرحٍ ومبانٍ سامقةٍ أو أسلوبٍ لغويٍّ جديد، بعاداتٍ مُتفردة بين مُختلف الشعوب.

علاوةً على ذلك، أن ما يجعل الإعتقاد يستمر، هو هذا الدافع العميق والإيمان المُتخم بأفكارٍ غيبيّةٍ، الذي يجعلنا نُدون أفعالنا في أي جزءٍ من بساط الوجود، بأي مجهودٍ كان، وبأي مخاطر. هذه القوة الرعناء التي تدفعنا قُدمًا، -أي أن نعيش وفق معتقدنا وآيماننا- حيث لا تنتهي الأشياء رغم بدايتها، هذه القوة التي تحتبس حواس الإنسان وتشلّ أقدام الإدراك الرشيقة بلطافةٍ غير مسبوقة.

هذا النعاس الذي يترنح مُبتهجًا فوق مساحات العقل الفارغة، ويُلقي فوق أرضها الخصبة مئات البذور من السخافات، لكنّها، وبكل جدارة، سخافاتٍ مُقدسة، سخافاتٍ قد بنت هذه الصروح المذهلة، هذه العادات المتشابكة، هذه الاختراعات المهمة.

والحيوان لا يستطيع فعل ذلك، نعم! أننا ندرك هذه الحقيقة بعنفٍ شاحب، لذلك أحس بما يفعلونه فيما بينهم وبين أنفسهم، أراهم جيدًا، إنّهم يفتخرون بما لديهم، ويقزموا أهمية الحيوانات بالنسبة لهم، رغم أن أغلب الحيوانات كسبت قدرًا كبيرًا من العواطف، لكنّ ّنا تفوقنا عليها، بسبب جهلها الغريزيّ، وإخفاقها التطوريّ، بتحويل عواطفها وتطويرها إلى عبادةٍ مُتماسكة وطريقًا إلى حدائق الخلود اللا نهائيّة. إنّها؛ ورغم دهائها الفطريّ، لا تفكّر بأن تخلق إله ولا أن تكتب التاريخ.

كانت ومضة صمتٍ مفاجئة داهمت رأسي، كما لو أن كل هذه الأصوات الثقيلة غادرتني للحظات.

رفعت رأسي، ومرت نسمة دافئة، نسمة تُداعب أطراف شجرة السدر الوحيدة، بقربها فتاة تضحك وهي تمضغ حبة لبّ حمراء، تسحب طرف عباءتها بحركةٍ متسرعة. بعيدًا عنها، كانت هناك قطة تلعب خلف بائعٍ نائمٍ فوق مقعد خشبي، وحيدة في سعيها، بريئة في لهوها.

شعرت بهدوءٍ قصيرٍ يمرّ في جسدي، كمن يُذكّر نفسه بأن هناك دومًا لحظات بسيطة تنجو من وحل الأفكار الثقيلة.

وبينما أترك عيني تسرح في تفاصيل المكان، كان هناك صبي صغير، جسده نحيل ووجهه متصبّغ بالغبار، يدفع عربة خشبية ثقيلة محمّلة بصخور متباينة الأحجام. كانت العربة تتأرجح بعنف بين الأرصفة، وهمساته وهو يحاول الموازنة تتداخل مع صرير العجلات على الحصى. أدهشني صبره وثباته رغم الثقل الهائل. فلقد استمر في دفع العربة، وكنت أراقب حركة أقدامه تتشقق ببطء على المقرنص الخشن.

كانت هذه الفتاة تتظاهر بأنها لا تراه، لكنني شعرت بأنها تعرفه، وهما على خلافٍ بينهما. لكني لم أهتم بذلك.

في ظل هذا المشهد المهيب، وقعت على بطاقةٍ سياحية مهملة على الأرض، باهتة الألوان ومتشققة، لكنها لا تزال تحمل صورةً عتيقة لقمم الأهرامات تحت شمسٍ غاربة.

توقفت لحظة، وكأن شيئًا ما تحرك في داخلي، وأعادني إلى أسئلة قديمة لم تهدأ...

مهلًا.. أشعر.. أشعر ببعض التشويش، من أقام كل هذا؟

من بنى هذه الصروح العملاقة؟ هذه الاهرامات العظيمة، هذه الاهرامات التي نتفاخر بها، ذاك الملك المُدلل ببياض يديه الناصعتين؟ أتقدر نعومتهما أن ترتب أحجارًا ما بشكلٍ أفقيٍ ومحدود؟ نعم، لم يأخذني العجب إلى حظيرته النتنة عندما كُنت صغيرًا وأنا أقلّب صفحات تاريخنا الغليظة التي تبثها مناهجنا المدرسية، لكن كان يعتلي رأسي سؤالًا صبّ فيَّ بعداوةٍ قاسية حول الإهرامات الشهيرة بصوتٍ جهير: "من شيّدها، وبأي طريقةٍ حدث ذلك؟".

ثُم تقرأ وأنت كأيّ طالبٍ في مرحلةٍ دراسية بترديدٍ غير مُدرك، أن الآلاف العبيد حملوا ما يُقارب ثمانمئة مليون صخرة كبيرة تزن الواحدة منها طنين -كمعدلٍ متوسط- وجاؤوا من مدينة أسوان حيث السدّ العالي المعروف، إلى القاهرة ليشيدوا بها تسعة أهرامات لتصبح فيما بعد أضرحةً لأجساد أسيادهم الفراعنة.

فعلى مدى مائة وثلاثين عامًا، وبشكلٍ يوميّ، كانوا يجرون بأعدادهم المهولة هذه الصخور الدنيئة لمسافات مُتباعدة. وكما قرأت ذات مرةٍ في كتابٍ، لا أتذكر أسم مؤلفه، لكنّه كان يقول: "إن نظام الرقيق عطّل اختراع العجلة". هذا النظام الذي يُلقي بأشلاءهم المُمزقة حين موتهم في أخاديدٍ صغيرةٍ مُصففة لسهولة التخلّص منهم، ويأتون بغيرهم بنفس السهولة أيضًا.

لكن من لمعت أمامه خطوطًا من غمقة الدماء بين الحروف المُبجلة؟ بين إنحناءات الزخارف وميلاناتها المحسوبة بحذاقةٍ مُدهشة؟ من أستطاع أن يُميز رائحة العظام المتفتتة التي تضجّ بالصراخ من تحت الأبنية الشامخة؟

أن هذا الإحتفاء المُطلق بالمتدّن الإنساني سوى هالةٍ قذرة ونسفٌ خطيرٌ للأخلاقيّة. كذبةٌ تقذف نفسها بشهيةٍ بين أحضان التمجيد المُترف، لنعلن بذلك إنتصارًا عارمًا على الطبيعة. لكنّه للأسف، تمجيدٌ رخو وباعثٌ للأشمئزاز.

فها نحن، بأغلبيتنا الساحقة، نخطو على تلّك الشاكلة بهوسٍ مُتجدد، وتنافسٍ ضرير مع ما نشعر به بأنّه أقل منّا، وما هو مسخرٌ لنا، كالطبيعة أو الحيوانات مثلًا. على عكس النظرة السائدة في مجتمعاتنا، بإنّنا لا نُبرز قوانا إلّا لمن نعده مُنافسًا جيد.

ولكم نحتاج من الأبصار الرؤوفة حتى ينكشف هفيف الضمير أمامنا وهو ينشد ألحانه الناعمة فوق تلّك الأوجاع المقيمة، من دمعات الأطفال التي تتساقط بإستمرارٍ وثيق، من هذا القلق المُزمن إتجاه أي نوعٍ من الشبع، ومن ترهلات النساء المحشوّة بالضَرِم والأثم النبيل. تلّك القديسات اللّواتي فرشنَّ نهودهنَّ على أسطح الخبز، لأنّه لا يملأُ معدة المشترين إن كان فارغًا من النهد.

لكن.. أهناك في أعمق تصدعات الكآبة، ما يمر من الهواء المُحمل ببعض الأمل؟

إعتقل لساني بإنتصابته المخيفة عندما أنتفض من فراشه الرثّ:

- الأمل؟؟

أجبته مُتفاجئًا:

- نعم، أمل...

ظل يتخبط كالموج، خمس دقائق أو أكثر، ثم لبد على الوسادة التي كان يحملها لينام على أقرب رصيف، وأغمض عينيه بتباطؤٍ باهت. كانت حينها الأفكار في داخلي تتطاحن كسيلٍ من الدم في ساحة الوغى، لكني أدعيت السكينة. ثم غادرته خلسة، لا لأهرب منه، بل لأهرب من السوط الذي يُلهبني، فلا طاقة لي ببؤسٍ مزدوج. بؤسي يكفيني، فهو وحده قادر على إفنائي.

آهٍ منه... مزاجه لا يُفهم. تارة يُشعل فيّ وهج الأمل، وتارة يذبحه أمامي بلا رحمة، وكثيرًا ما يحدّثني بأشياء لا أفهمها... بل أظن أحيانًا أنه لا يفهمها هو أيضًا، وكأن كلماته مرايا مشروخة تعكس ظلالًا أكثر من أن تعكس وجوهًا.

****

انقضى اليوم...

وأنا أجر معي تأففي وإحتقاري كما تجر سكرة الموت بنا إلى ليل القبر الأبديّ. ولعل اليوم لم ينتهي بعده، فهو يعيد إبتناء نفسه في عقلي مرارًا ومرارًا، ويلبس الخوف الذي فيَّ رداءً مُتهلّهلًا من حشود الوجل الشؤم، التي لا تجد مثيله، سوى في مزابل القهر الكبيرة. لأتلقى تلّك السويعات من الأسئلة والحوارات المُبرحة، وهي تتشكل مُتخذةً هيئة غولٍ يُرهب بفأسه المُدبب والمسنون كل ما يقف قُباله، بحيث انسى اني أعيش حاضري هنا.

مما يجعلني أوكد بأن معضلتنا، إننا نتجول مُرتعبين في ذكرياتنا وخيالنا أكثر من واقعنا الخارجي، ليتشوه حاضرنا بأنبثاقات الماضي وخلجات المستقبل.

أذكر قولًا لأستاذي الجامعي "موسى" عندما سألته عن هذه الثلاثيّة "الماضي، الحاضر، المستقبل". أجابني:

"أن الماضي لا يموت، بلّ يتجدد، حتى نتوهم بأنه حاضرٌ جديد، لمستقبلٍ آخر".

لكن... ما علاقة هذا بكل ما أشعر به الآن؟ لماذا تتقافز في ذهني أشياء لا صلة لها بما أمرّ به؟ وماذا أنوي أصلًا؟

أأمد قدميّ على هذا السرير الذي ما جئته إلا وتذمّر رافضًا حمل هذا اللاشيء البغيض؟ وما الذي يؤكد لي أنني في يقظة حقيقية؟

الأشياء لا تبدو معقولة، والإدراك يتخثّر في رأسي كعَلقٍ مرّ. آه، ماذا يحصل؟

أريد أن أصرخ!

أضرب الحائط؟ لا

احطّم المرآة؟

بل... أقلب طاولتي فوق كتب الجامعة المملّة؟

أف... ما الذي يحدث؟ وما علاقة هذا بكل ما أفعله؟

بدأت حبال النوم الداكنة تجرني تدريجيًا نحو سجن الحلم...

ولم أقاوم.

(البارت الخامس)

بعد ليلتين.. كنّا جالسين تحت ظلال نخيل وسط المدينة. كانت الحديقة نائمة، شبه غافلة عن صيفها اللاهب، تهمس كأنها لا تريد أن يشعر أحد بوجودها. بين سكون الهواء وانعكاس ضوء الشمس الخافت، تمايل سعف النخيل برقة كأنه يهمس بأسرارٍ إلينا. ثم هبّت نسمة خفيفة، فارتجفت الأغصان، وأصدر الرذاذ المائي من نافورة قريبة خريرًا خفيفًا، ينساب بين الأحجار كما لو كان يشق طريقه خجولًا.

من بعيد، عبرت مجموعة أطفال يلهون بأصوات عالية، ترتطم أقدامهم على بلاط الممرات الحجرية، فتتبعثر أوراق الشجر الجافة في دوائر صغيرة تحت أقدامهم العابثة. سمعنا زقزقة بلبلٍ حين يختبئ بين أغصان النخيل، ثم اختفى سريعًا حين اقترب ظل قط متسلل باحثًا عن مأوى أو فريسة.

جلستُ أنتظر، وأتابع وقع أنفاسه، يتناغم مع رقة حفيف النخيل، وكأننا جزء من هذا المشهد الذي يمزج بين الحياة والخمول، الحراك والسكون، لا نريد أن نُقلق الهدوء الهش الذي يلف المكان، لكنه مع ذلك ينبض بحيوية غامضة. سألته:

- ماذا تعرف عن هؤلاء الناس؟ كيف تصفهم؟

أبتسم قائلًا:

- الناس؟

- نعم

وانا أنتظر إجابته، هرولت الرياح من جانبينا، زحزحت بعض أوراق النخيل فوق رؤوسنا، وأحدثت خشخشة واهنة تُشبه ضحكة خجولة من قلب الصيف.

على الممشى الترابي، جرّت امرأة طفلها الذي كان يصرخ بدون أن تعرف سبب ذلك، وبائع جائل دوّى صوته من بعيد وهو يُلوّح بقنينة عصيرٍ بارد.

تناثرت لحظات صغيرة من الحياة حولنا، كأن المدينة تذكّرنا بأن فوق كل فكرةٍ ثقيلة، هناك دائمًا مشاهد بشرية ساكنة.

ثم استدار إليّ العم عيسى، وعدّل جلسته قليلًا، وقال بنبرته المقلقة:

- الناس يا بُني، في معظم حياتهم، بلّ أجمعها، نسيج حاكته إرادة الوراثة الجسورة. ولك أن تتمعن في خيالاتهم الأكثر نضابةً وشهوة، من حيث البُنية والصُورة، تجدها لا تنفك عن كونها خيالاتٍ مُتكاثفة تكاثفًا سلفيًا. فلقد ظلّت عواطفهم على هذا الضِلال قرونًا مُتتالية. حتى أصبحت إنحرافًا عفنًا، لكنّه إنحرافٌ مشبعٌ بنكهةٍ أخلاقيّةٍ خالصة. هكذا الإنسان مُنذ نشأته، عندما

لا يتكبت عناء أن يجد مُبررًا عقليًا على شيءٍ ما يمارسه أو يعتنقه -وهو في غالب الأمر لا يعي ذلك- ويندفع بما فيه من قدرٍ عالٍ من التقبل للأمر، بفعل العادة ليس إلَّا. سيكون جميع ما يتعذر إدراكه قابلًا للتزخرف والتزيين، وبحذلقةٍ مثاليّةٍ أيضًا، يشبه أن تخرج هيكلًا عظميًا وجدته تحت الأرض، ثم تحاول أن تُلبسه أجود الثياب الحصرية، وتبحث عن بعض الشعرات المتبقية، لتصفها حسب الموضى، هكذا الأمر.

صمت قليلًا؛ ثم أردف مُهيبًا كل ما حوله بطريقته اللاذعة:

- أنا أؤمن، بأن الأشياء التي تمر على شواطئ الإدراك، يمكنها أن تبقى على حالها أو تُسحب خلف أمواج البحر من دون أي نوعٍ من الحنق والكمد إتجاه هذا الشيء. لكن، كيف لهذه العقول الزاحفة، البطيئة، الفاترة. تلّك التي ترعرعت في قُرى الأمعاء الضيقة والتي ستموت فيها بجبريةٍ مُتعاقبة. أن تشعر بأنّها هُنا، وإن بأستطاع أي فردٍ منهم أن يتخلى عن هذا الإستهلاك الغريزيّ، هذا الإغتصاب المُمل للعقل عندما يُكتب على أكبر أبوابه وأكثرها فخامةً "نفذ ثم أعترض".

لحظة دهشة مني، لكنه لم يعطني وقتًا كافيًا للتأمل في كلامه:

- إذ تجد في الأعم الأغلب من مسالكهم، يعمدوا على تأسيس صنم إجلالهم بكل شهامةٍ وإعتزازٍ فاحش للّا منطقيّة. وهُناك سببٌ جليّ الوضوح بالنسبة لي، فنحن قبل أن نُلعن بالوعي، هذا الشيء الذريع، الماكر، المُتمرد. كُنا نمارس الحياة كأيٍ كائنٍ أدنى منّا قليلًا، بسِنن الإنفعالات البسيطة التي تقبع تحتها دساتير الغرائز الأكثر ثباتًا وتجذر. فإنبلاج هذه الحياة العاقلة، شوكةٌ غير متوقعة نحو أعين الطبيعة المُسنّة، عارضٌ كبير ومُستبعد، في ظلّ هذه العناصر الأشد سكونًا وتوطّن. ولذا؛ نرى أن أكثر المجتمعات عيشًا في الأدغال أو بما يشبها بقلة الإحتياجات الفكريّة والغريزيّة، ينفقوا أعمارهم بنوعٍ من الخيال الأجوف، وبتغذٍ مستمرٍ لهذه الأساطير والخرافات المُتسولة. لأنّهم أقرب إلى المرحلة التي سبق أن أسميتها بالحياة العاقلة. فمُجمل ذلك؛ من نشاطٍ إنسانيٍ مُتخلّف، هو إشتياقٌ وإشتهاءٌ ونزوعٌ جماعيّ إلى نمطيّة الأسلاف الرتيّبة، وأقصى ردة فعلٍ ساخطةٍ يُمكن أن تقام إتجاه العقل، هذا الدخيل المُبهم المُغتر. لكن ما الحل؟ كيف سنوقف جوع الحنين المُحتد إلى اللّا منطقيّة؟ إن هذا الإسراف الكبير للإقتتات على نفس هذه الأباطيل المُنتقضة، برغم إزدهار علومنا، يجعلنا بمرور الوقت، أشباحًا حقيقيّة. ولكم أشعر بالغم متأويًا وباكيًا حد الأغماء، أنا من أمجد التفكير، كيف سأقف هامدًا أمام هذه المذابح الجماعيّة للعقول؟ كيف سأحطم أصفادهم أن كانوا يظنوها كشيءٍ منهم، كاللّحم المُلّتصق بالجلد، وكالكذب الذي يسّكن أزقة الصدق ويلعب فيها بهزرٍ وقهقهةٍ صخبة.

سكت فجأة، كما لو أن الكلمات أثقلته لحظة. تنفس ببطء، أغمض عينيه لثوانٍ. فلقد انعكست الشمس مائلةً على الزجاج القذر لإحدى البنايات التي تكون بقربه، وارتطمت عربة نفايات بجانب الرصيف فأطلقت صريرًا مزعجًا.

عجوز يرفع سطل ماء برعشة أصابع مرتجفة، وطفل يبكي متشبثًا بعباءة أم تجره بلا أي صبر، أصواتهم عابرة، بلا معنى... لكنها، بعنادها المتكرر، تسقط على أذنيه كما يسقط المطر على سطح من قصدير. والأرصفة متآكلة، تمتصّ حرارة الظهيرة وتنفثها على الأقدام، كأن المدينة تهدي سُمّها في وجه المارّة. أسلاك الكهرباء متشابكة كعروقٍ عارية فوق صدور الأزقّة، تنخفض حتى تلامس رؤوس الأطفال الذين يركضون حفاةً.

رائحة المجاري القديمة تعبق في الجو، متداخلة مع بخار قدرٍ يغلي في عربة طعامٍ مهترئة، والحيوات تمضي بإيقاعٍ ثقيلٍ، كأنها تحبو على ركبتين داميتين. الكلاب النحيلة تتسلل من تحت العربات، تبحث عن ظلّ أو بقايا طعام، والناس... وجوههم مائلةٌ كما ذلك الزجاج، تعكس أوجاعًا لا تُروى، وتُحدق في الفراغ كأنها تنتظر شيئًا لا تعرفه.

رفع العم عيسى رأسه كمن ابتلع مرارةً حتى آخر قطرة، تشدّد عضلات عنقه، قبض على عصاه كأنها آخر سلاحه، وتقدم بخطواتٍ بطيئة نحو مصطبة حجرية وسط الحديقة.

صعدها، نظر حوله بعينين تقدحان شررًا، ثم فجّر صوته في الفضاء المُنهك:

- أنتم! نعم أنا أعنيكم جميعًا، أنا هوائكم النّقي المُنعش، كيف يحن لكم مقاومتي؟ أنا الذي سأحشر فلسفتي، وأخلُّ نظامكم الفكريّ والشعوريّ المُبتذل. أنا تلّك النغمة ذات نشوةٍ تربو فوق النعت، أنا روحٌ تترفع عن الأهواء وتخبطاتها ومناوراتها المُعربدة. أنا كشيءٍ لا يستبقه شيء، ولا سيأتي من بعده شيء. أُحدث إعاقةً للأفهام التي تحاول إدراكي. يا عُمال الرذيلة النشطون، يا كادحيّ الدناءة المساكين، كم أُرأف على حالكم، ويشفقني توحدكم المضطرد هذا، الذي ينفخ فيكم شعورًا زائفًا بالعظمة. متى ستفهموا، يا أولاد الحقد، يا حُراس الشهوة الأوفياء، يا تلاميذ اليأس المُتفوقون، بأن الإجماع لا يعني بالضرورة أن يكون برهانًا على صحة الإدعاء، فإن أصحاب الرأي الواحد، كالعقل الواحد. وبأيّ نبراتٍ سأجعلكم تستشعروا ذلك؟ أنتم الذين تفتقرون إلى أبسط مدخلات الحسّ الأخلاقي في ضمائركم التي تكاد أن تكون شيئًا يُدعى بالملاطفة والتزلّف ضميرًا.

كانوا في السير بلا توقف، رجل يسحب عربة البقالة دون أن يرفع رأسه وهو ينقل صناديقه من مكان إلى آخر، امرأة تقف عند موقف الحافلة تتفحص ساعتها، وطفلة تطلب من أحد المارة بعض النقود؛ لتشتري لها شيئًا تأكله. وفتاةٌ تمر مسرعة حاملة حقيبتها الكبيرة من غير أن تحسب أن هناك صبي متحمس وهو يسوق دراجته الهوائية بإتجاهها. جميعهم لم يعيروا له أهميّةً، بلّ كان حينها من الاحترام والتقدير له لو كانوا يستهزؤون به وبحركاته وملابسه الرثّة.

تمسك بكتفي لينزل من على المصطبة، مُكملًا حديثه معي، كأنّه لم يفعل شيئًا قبل قليل، متجاوزًا كل ذلك، وبرغم حيرتي كيف يفعل الإنسان شيء لا يؤمن بحدوثه، ما هذا العناد الوجودي الذي قد يتملكنا في أحيانٍ كثيرة؟ قاطع أفكاري هامسًا بإذني:

- لأقول لك شيئًا يا بُني، أن المُتعة الغريزيّة تلّك التي تدفع الإنسان في أكثر حياته، إلى سلوكياتٍ ونمطٍ فوّري من التفكير، هي أول ضحايا الإدراك، لكن بأي شكلٍ يُمكن أن تُساق وتُقدم مثل هذه الجنائز المهيبة؟ من يستطيع تحمل أوزانها الثقيلة وهي تتربع فوق الظهور الناعمة تلّك؟ لكنّني، وكما تراني أمامك، بإرتجافات يديَّ هاتين كفنتها، ووضعتها بكبرياءٍ وشكيمة في تابوتٍ أخذت أربعون عامًا في إختياره، تابوتٌ لطيف الملمس، لآفت المنظر. ثم رفعته إلى أعلى السماء دون أن أذرف أيُّ دمعةٍ على ذلك. وبهذا، أنا الكائن الوحيد الذي عبر إنسانيته، طهرها، وأستأصل الورم المنتشر هذا قبل أن يُصيب الروح الأخلاقيّة بأي فتورٍ يُمكن أن يتوارث، أو عميٍ أخلاقيّ، هو الأقسى على الإطلاق. وهذا ليس رفضًا للمُتعة بصورةٍ تامة، لكن أن تكون قراراتنا الفرديّة بمجملها، تأخذ حماسها وإندفاعها من روافد النزوات الجوفيّة الجاريّة فقط، لهو أمرٌ يجعلني أشعر بالدوران. في النهاية، لِم لا أعبّر عن ريبتي وتوجّسي؟

- كيف سنقنعهم بما توصلنا إليه؟

- رغم أنّني دعوتهم قبل قليل، لكننا في الحقيقة عاجزون عن ذلك، إذ برمجتنا الأساسيّة تصرفنا عما هو غير محفزٍ لشهواتنا، غير مُهيجٍ لأنينها، حاجاتها؛ حيث تجدنا بالعادة نتجاهل بقوة الإندفاع الغريزيّ، كل من يفتقر القدرة الدراميّة على إشغالنا

لبعض الوقت. وأسفاه.. إن هذا الوضع العجيب المُنكمش، متى يصرخ بأذان العقلانيّة المُتحجرة؛ ليوقظها من نومها الجاثم؟ أو يوبخها كأيِّ أبٍ يفعل ذلك لولده الكسول، لتغادر كهوفها عنوةً عنها كواجبٍ ضروري لا يؤجل. لكن لا شيء من هذا يحصل، إذ نحن ماضون إلى حفر مقابرنا بأيدينا بزغرفةٍ ذات أبعادٍ تأمليّةٍ كريهةٍ في معنى الموت، دون أن نعي ذلك. إنَّنا يا بُني، نتوهم الإحسان، الرحمة، المغفرة، التقدير، المحبة، الشجاعة، ونعيش على أثر توهمنا المُنبسط هذا، لكن للأسف، ليس لدينا سوى أنّ نعتراف بواقعيّة هذه الكائنات المتهلهلة، التي من وجهة نظري، يجب أن يعاد صياغتها من جديد، لأنّها فاسدة، فقد تربت في دياجير غرائزنا، حتى فُرضت بعد ذلك، كنماذجٍ معياريّة تحمل طابع المُطلق، لنوعيّة تعاملاتنا الأجتماعيّة في كافة المجالات، وهذا يجعلنا موسوسون، مزدوجون، شنيعيّ الطبع، ومتعطشين للإنتقام. غير أن ذلك، هو الأهون من عدم التوهم، أي أهون من اللا نظام. لكنني أتنبأ بأن نهاية إنسانيّتهم وشيكة، لا بسبب شرّهم الداخلي فقط، وإنما بسبب أفرازات نماذجهم الأخلاقية أيضًا.

- وماذا سنفعل؟

- ماذا سنفعل؟

شعرت بالخجل، ثم سألته نفس السؤال بصياغةٍ مختلفة، أجاب:

- يا بُني، يجب عليك ممارسة التفكير أكثر، أن تعتاد السقوط بقوةٍ إلى ما تحت المُكتشف بالآلاف الكيلو مترات عما ترجو التسلّق إليه، ثُم تبدء من تلّك النقطة بالنهوض ثانيةً. فأن المعرفة العُليا "المعرفة الشموليّة" -هكذا أحب تسميتها- ليس من الشرط أن تكون فوقنا، كما يزعمون موظفيّ الحكمة البليدون، إذ هناك من المعارف الشيقة في أدنى الأشياء وأسفلها.

- تقول أشياءً غير مستساغة، مُثيرةٌ للإحباط، لا تقوى التقاليد المجتمعيّة على إستجماعها وهضمها، ألّا تخاف القتل؟ أعتقد بأنّك كُنت شجاعًا، وإلّا كيف أصبحت كذلك؟

- أنا أخاف أن أكون جبانًا فحسب.

بدا صوته يذبل شيئًا فشيئًا، لم يعد يتهجّم كما كان قبل قليل، ولا يصيح، ولا يُشعل فيّ الأسئلة بعنفٍ. خفتت نيرانه، وتحوّل إلى رمادٍ دافئٍ في زاويةٍ من صدري. لم أكن أعرف أنّه يتهيّأ للرحيل، لكنّي شعرت بذلك، شعرت به كما يُحسّ المرء بذبول الوردة دون أن يراها تتساقط. صمته كان يُفصح أكثر من صراخه:

- أما الآن، سأودعك، حان الوقت لذلك..

- أين سترحل؟

- أريد أن أحضى ببعض المرح في أراضٍ خضراء بعيدة عن هذه الفوضى العارمة التي تشتاح المدينة

- حسنٌ، ومتى سترجع لها؟

- ولماذا تعتقد بأنني سأرجع؟

- أشعر بالحزن بعض الشيء...

- أبتسم أيّها الفظّ الصغير، ربما سنلتقي في يومٍ ما

ربت على كتفيَّ ودار ظهره، بخطواته المتقلقة، التي يقدم فيها رجليّه بطريقةٍ لا يكاد يثنيهما وهو يتعرج بعصاه، تلّك التي لطالما كان يغازلها ويجد فيها من الحب ما يجد، حتى بدا لي كأنّه لم يكن هُنا منذ ثوانٍ قليلة.

(البارت السادس)

بعد مضيّ ثلاث سنوات، كنتُ أنا وأختي مريم متوجهين إلى السوق، أساعدها في حمل ما تحتاجه من لوازم المنزل، مع التوقف عند صيدلية قريبة على الطريق لشراء أدوية أمي، تلك التي تضمن بقاءها على قيد الحياة بتوصية من الطبيب الذي قامت بمراجعته الشهر الماضي.

كنت أتطلّع أبواب الدكاكين، ألوانها، أصحابها المتحمسون، أرصفتهم العجفة، وجميع الأشياء المصفوفة على الطرق، فقد بدت لي هذه المساحات المُنشغلة بالنشاط، تحمل وهجًا مُتطرفًا من الأستمراريّة، ويسبب لي ذلك استياءً أكثر فظاعةً من وقحٍ مُتغطرس. غير مُعيرين للواقع أي التفاتةٍ ولو كانت سريعة.

آه من ضحكاتهم، تلّك التي يفوح من بين دويها رائحة القبور المُحطمة، تلّك التي تشبه تصاميم قلوبنا المريرة. أنهم حمقى، أغبياء، يصدقون أي شيء يقال لهم، وأنا لا أدري كيف استمع لهم في بعض الأحيان، لكأنّي نسيت أن أحذر نفسي، أن أقومها بدعامةٍ تجعلني لا أجثو مُستسلمًا بين رمال أفكارهم المُتحركة الشكِسة، أن أقول "لا" لهم، أن هذه "لا" تعني بالنسبة لي كل شيء.

لكنني أعتدت أن ارفض الانصياع إلى السلوك التقليديّ -كما نبّهني العم عيسى من ذلك- حين أسمع صدى نداءات الرغبة الآتية من أقصى مُدن اللا شعور العجيبة بخشوعٍ وحُظوة.

آهٍ من كل ذلك، فلكم أكره أن تتطفل عليَّ الطمأنينة على غير موعدها، إذ لا أجد هذا التوهج اللّحظي مقبولًا، طالما يُعكّر صفوة ظلمتي البريئة. نعم، أنا لا أستسيغ هذا النوع من الهدوء، ليس لرفضي السعادة، بل لأني أجد في بعض أشكال الألم الإدراكي لذّةً تتجاوز فكرة السعادة نفسها. قالت:

- أمنشغل مرةً آخرى بتلّك الأفكار الكئيبة؟

قالتها وهي ترفع صوتها كي تسمعني وسط الضجيج، بينما أحد الباعة ينادي: "تفاح! تفاح طازة!":

- تلّك أكثر الأفكار تفاؤلًا لدي..

تمتمت وأنا أزيح كتف رجلٍ اصطدمت به بلا قصد، قالت:

- أسمعت ما أُعلن عنه في الأخبار؟ بأن هُناك حصارٌ قادم بعد أشهر من اليوم، بسبب الضغط الدوليّ على الموارد الغذائيّة.

أشارت برأسها نحو مذياعٍ مُعلّق أمام دكان بقالة، يذيع الخبر بصوتٍ أجش:

- نعم سمعت، يبدو لي الأمر طبيعيًا..

قلتُ وأنا أنظر إلى بائع الأعشاب الذي كان يقلب في كيسٍ من الحبوب ببطء، أجابت:

- طبيعيًا؟؟ سيموت ملايين الناس من الجوع!

صرخت وهي تتوقف فجأة وسط الممر، مما اضطر عجوزًا يحمل كيس بطاطا أن يتذمر غاضبًا:

- شفقتكِ عليهم تشعرني بالاشمئزاز..

رمقتُها بنظرة باردة وأنا أعدل وضع الكيس الصغير الذي أحمله لأمي. ثم مطت شفاها غضبًا حتى قاطعتها وهي متوّسعة العينين، والناس يندفعون من حولنا بلا اكتراث:

- لماذا تشعرين بالشفقة نحوهم؟ ألم نسمع في الإذاعات التي تردد كل يومٍ كالببغاوات عن شعوبٍ أصبح وجود الخبر بالنسبة لهم كخرافةٍ مُقدّسة؟ خرافةٌ يتناقلوها بتهيجٍ صارخ، إذ تشبعهم سماعها أكثر من أكل الخبز نفسه. أذكرك بهم؟ شعوب من مختلف الدول، السودان، الصومال، تيمور الشرقية، إثيوبيا، أفريقيا، اليمن، والكثير من الدول، فهل سمعتي بهم حقًا؟

اهتزّت خطواتها، فتحت كفها ثم أطبقتها بعصبية وهي تُنحّي صبيًا دفع عربته الثقيلة محملة بالبصل بجانبها، ثم هزّت رأسها بغيظٍ يكسوه شيءٌ من القلق. لكنني رفعت يدي مانعًا ردّها:

- إذن من المستحسن أن لا تشفقي عليهم، ذلك هو الفعل الأكثر أخلاقيةً على مدى حياتك، فهل تطلب الأمر إلى عددٍ أكبر من الجائعين في العالم لتشعري بغصةٍ إتجاههم؟ ما الفرق بين شعبٍ يجوع وشخصٍ واحد جائع؟ كم يساوي ذلك عندك؟ وهل هناك فرق من الأساس؟ هل سلبهم الحقّ في أن تكون بطونهم مُملوءةً بالطعام هو الذي يشعركِ بالشفقة؟ أم تكرار وتباين أشكال هذا الأستلاب الإجباري لهم والحديث عنه في الإذاعات؟ أجيبيني، لماذا كلما يزداد عدد المعانون تزداد قيمة المعاناة، على عكس ما نجده عندما يعاني شخصًا واحدًا من الجوع، حيث لا نشعر إزاءه بنفس تلّك الشفقة ونفس هذا الحماس العظيم للتوجع من أجل مظلوميته، أيوجد أكثر قبحًا من هذه الشفقة الوحشيّة يا أختي العزيزة؟ سأقول لكِ شيئًا، أنت لم تشفقي على أحدٍ سوى نفسكِ فقط

ارتجفت شفتاها وصاحت وهي تدفع امرأة مرت قربها:

- يا لك من لئيم و...

أكملت كلامي رغم شتمها المستمر لي، وأنا ألتفت للحظة نحو واجهة صيدليةٍ صغيرة نبحث عنها منذ البداية، وأقترب ببطء منها:

- لقد تخيلتي في بادئ الأمر أن تكوني في مكانهم، نعم سنكون في مكانهم لم يتبقى شيء، وهذا ما يفسر شعورك الآن بالألم! الألم يا أختي هو الشيء الذي يُلهب شفقتنا، إنّه محفزٌ أخلاقيّ ذو نُبلٍ عالٍ، وموجهٍ لكثير من ملاحمنا البطولية، الأكثر ميلًا للإحترام، غير إننا نستثقل حضوره، إذ أراه في الغالب يتعثر يائسًا خلف شغفنا بالحصول على السعادة، كعجوزٍ طُرد من بيت إبنه الوحيد، إبنه الأكثر دناءةً من أن يكون إبنًا أو شيئًا، أي شيء.

شهقت، وضربت بكعبها على الأرض، وصاحت فوق أصوات الباعة المتزاحمين:

- الآن أصبحت تتكلم مثله! ذلك المجنون المُنحرف

ابتسمت وأنا أضع يدي على مقبض باب الصيدلية:

- مرحى، إنه خبر سار، شكرًا على هذا الإطراء يا أختي العزيزة

غطت وجهها بكفيها وقالت بصوتٍ مبحوح:

- أنت تجعلني أفقد صوابي!

ففتحت الباب نصف فتحة، ثم التفت إليها بنظرةٍ متعمدة:

- نعم، هذا ما أراه مُناسبًا الآن..

ثم بعد هذا الجدال الصاخب، سمعت دويًا ضخمًا جعلني أرتطم بمقدمة محلٍ يبيع الخضروات قرب الرصيف وغمي عليَّ حينها.

****

بعد دقائق...

بدت الأشياء معكوسةً ومتذبذبة، حالةٌ جعلتني أكون مُتقلقًا بين الرؤية والعمى، كأنّي أسكن وسط هلوسةٍ ما. بعد ذلك، شعرت بأختي تضرب بخدي وأسمعها تبكي مرتجفةً وتقول:

"أنهض، أرجوك أنهض، لا تمت"

فتحت عينيَّ بالكامل، وقلت لها بوهنٍ:

"هذا الوقت مُناسبٌ للموت أيضًا".

أخذت بي وهي تزحف مُترجرجةً بين مئات من اللّحوم المُتطايرة، أشلاءٌ مثقوبةٌ ذات بريقٍ دمويّ، بريقٌ ينبغي إعتامه، بريقٌ له إثبات عميق لخزيّنا نحن البشر، نحن الذي يجب على الطبيعة أن تتفوق علينا. في النهاية، أرى ذلك غير مُمكنًا.

تطايرت الشظايا كأنّها تكره الأجساد، تبحث عن لحمٍ ترتوي به. وفي ثوانٍ، صار الهواء ثقيلًا برائحة الدم، ممزوجًا برائحة لحمٍ بشريّ مشويّ، منتثرٍ على الجدران، الأرصفة، حتى أكتاف المارّة.

دفعها أحدهم وأبعدها عني بسبب فزعهم، مريم كانت هناك، ذراعها ما تزال ممدودًا نحوي، لكني سقطت أمامها، لا من شظيةٍ قاتلة، بل من ضغط الانفجار.

ارتطمت بشيء لا أدري ما هو، كان طريًا فقط..

ثم صرخت، تلك الصرخة لم تكن صوتًا، بل كانت نداءً بدائيًا، ملأت بها جسد مريم كله برجفة لا تنسى. نظرت إليَّ... وجهي مغبرّ، جبيني ينزف، قميصي ممزّق والدم يتسلل بشهوةٍ بغيضة؛ لكنني كنت حيًّا.

جثَت مريم على الأرض، تتسلّق الركام كأنها تتسلق موتًا لا يخصّها. يدها ترتعش وهي تزيل الحجارة عن جسدي، وصرير الزجاج تحت ركبتيها كان يذكرها بأن كل خطوة تُدميها، لكنها لم تكن تبالي بذلك.

حولها... لحمٌ لا تعرف من أصحابه، لكنه موجود، يلتصق بثوبها، على يدها، على شعرها... قطعةٌ صغيرة بحجم قبضةٍ صغيرة كانت على بعد شبر مني، كأنّ أحدهم كان طفلًا قبل دقائق.

لكنها لا تبالي.

- "محمد! محمد، كلّمني!"

كانت تصرخ، وكأنّها تحاول أن تبقيني حيًّا بصوتها، تطرقني بنداءٍ عشوائي وثقيل.

فتحت عينيَّ ببطء، ابتسامة خفيفة مُثقلة بالألم ارتسمت على وجهي:

- "هل أنتِ... بخير؟"

رأسها سقط على صدري، ليس بكاءً، بل كأنّها تحاول سماع قلبي، لتتأكد أنه ما زال ينبض. حولهما كانت الدنيا تصرخ، الإسعافات تذوي، الناس تجري، الأجساد تأنّ، لكن مريم... كانت فقط هناك، تحرسني، تضع يديها على جروحي، تضغط، كأنها تمنع الموت من التسرب إليَّ.

بعد ذلك، كانت تحاول وضع ذراعيَّ على كتفها مُتعثرةً بما تبقى من أنفاسهم الأخيرة. للوهلة شعرت بإنَّني أتجول في جحيمٍ يقطنه مئات الشياطين.

مهلًا، بماذا تفوهت؟ الشياطين؟؟ كم أنا سخيف للغاية! يا لحماقتي التي أكرهها بشدة، أنسيت بأنّ الشيطان من أضخم إختراعات البشريّة عبقريةً ونباغة؟ إذ إننا أسقطنا صورته الشنيعة على أنفسنا. رغم إنّه في الواقع، نحن الذين جسدناه على صورتنا وأبرمنا هذا التجسيد لأنّنا أحسسنا بالعار من حقيقتنا وصُدمنا بها عند أول بناءٍ بدائيٍّ للمجتمع الإنسانيّ، ويعود سبب ذلك، إلى إنه عندما بدأ الإنسان يبني أول مجتمع له، اصطدم لأول مرة بنفسه ككائن أخلاقي، لأن الجماعة تطلبت منه قوانين وسلوكيات مشتركة.

ولأن هذه القوانين قيدت رغباته وغرائزه، وفرضت عليه "ما يجب وما لا يجب"، بدأت تظهر الازدواجية بين ما يريده الإنسان حقًا، وبين ما يفرضه المجتمع عليه. هذا الصراع الداخلي -بين الرغبة المكبوتة والضبط الاجتماعي- خلق نوعًا من العار والذنب، وشعور داخلي بأن هناك "جزءًا شريرًا" في النفس. ولأن الإنسان لم يستطع مواجهة شره الداخلي وجهًا لوجه، اخترع الشيطان كضرورةٍ حتمية، وكنتاجٍ لهذه الصدمة الكبيرة.

واخيبتاه...

أن ما يجعلني أشمئز أكثر، إننا بدأنا نتناقل هذه الصدمة بوجوهٍ مزبدة، جيلًا بعد جيل، لتصبح فيما بعد، وجوهًا أعتياديّة ومرغوبة من غير أن نشعر بذلك، كما فعلنا هذا مع الله أيضًا.

كم نحن مُريبون، لا نستحق كل هذا الإتساع الهائل من الإرادة الحُرة. أن من هذه القوة تنبع كل الشرور، كما يمكن أن تنبع أكثر الأفعال خيرًا، غير إنّه بالملاحظة يتضح لنا أن الشر أكثر شيوعًا في هذا العالم. وهذه الشيوعيّة للشر تجعلني ميالًا لأضعه كأصلٍ وجوديّ لا إعتبار. وإلَّا ما معنى أن يُرسل الله أنبياءً تحمل شريعةً لضبطنا وتوجيهنا إلى ما هو صالحٌ إن كنّا بالفطرة أخيارًا؟ صبرًا.. ماذا بي؟ أنا أنزف غير مكترثٍ لأرتجافي ووشوشوتي، هل أنا مجنونٌ حقًا؟

- "لا تغمض عينيّك أرجوك، لا تغمض يا أخي أرجوك!"

حينها لا أتذكر شيء سوى إنّني أنقل إلى داخل المشفى، كانت رائحة الموت تلّعب فوق الأسرة البيضاء، ونواح الأمهات على أطفالهنَّ الممزقون يُغازل الظلام الحالك في أملهنَّ الأخير بالنجاة.

أوليس ذلك رومانسيًا لدى دُعاة التبشير بالمُنقذ الذي سيقصي جميع الظالمين ويحكم في الأرض عدلًا؟ أوليس هذا أقصى ما توصلته النزعة الدينيّة بالأمنيات؟ دع هذا على جنب، أين كان هذا المُنقذ العظيم من الحربان العالميتان؟ أين كان عندما تقيأت المستشفيات بجثث القتلى؟ ستون مليونًا! ألم يثيره ذلك العدد؟ أنسينا حينها هول الخراب، التهجير، السرقات العشوائيّة، الأغتصاب، والقتل المُباح لأيّ سببٍ كان.

أين هو من كل هذا؟ ماذا ينتظر بعد؟ القرار الإلهيّ؟ آهٍ، آهٍ يا أيّها المُعدمون، كم هو عنيد هذا الأمل فيّكم، كم أنتم ضعيفون، عديمو الفائدة، مقززون، وأيّ عالمٍ هذا؟ أهو مجرد مسودة مهترئة لتجربةٍ كونية فاشلة؟ ربما... ليس ذلك مستبعدًا.

لا أنسى ما قاله العم عيسى ذات مرةٍ حين كُنا نتمشى بين دكاكين الأسواق الشعبيّة المُشبعة بالضجر: "الشعب الضعيف يكفيّه قطعة خُبزٍ وخُرافة". أما أنا أقول، يكفيّه تلّك الخُرافة فقط، هي أشهى ما يمكن أن يتذوقه، وأفخم ما يقتاد عليه طوال حياته.

****

جاء لي مُمرضٌ يبدو عليه من رقّة القلب ما يمكن أن يوضع أمام أيّ شأنٍ آخر، قرأت أسمه من على صدريته الطبيّة "سعيد" ثم تقرب لي قائلًا:

- عفوًا، تمدد لو سمحت؛ لأمسح الدماء من على قدميكِ وأنظف لك الجرح

- شكرًا، لكن لماذا تفعل لي هذا يا قاتل الضفادع؟

- ماذا تقول؟

رفعت رأسي بموزاته، حتى أنصعق مُتذكرًا كل الأيام التي كان يقذفني بها بالأسماء الخبيثة، تلّك الأيام المطاطيّة التي يتردد فيها العذاب بصيرورةٍ دائمة، الأيام التي جعلني فيها أُخبئ جرحي لئلا تعلم أمي بذلك وتضربني أيضًا؛ لكوني أبدو بأزرقاق وجهي وإنتفاخه، كأحد المشاغبين في المدرسة، غير أنّني والشغب لا نجتمع على طاولةٍ واحدة، لا لأنّني مُهذب ومُطيع، وإنّما كُنت خائفًا فحسب.

كل هذا التذكّر، رأيته منسوجًا فوق لمعان بياض عينيّه اللّتان تبدوان بريئتين. قلت له:

- ما هذه الصدف الماكرة التي جعلتك تعمل بمهنٍ نبيلةٍ كهذه!

رد عليَّ متمتمًا وخجولًا:

- إذا كُنت تحتاج إلى مساعدة أنا بالقرب منك

- أطمئن، هذا لن يغير من حقيقتك، أنت لست سوى وغدٍ يحاول التكفير عن ذنبه أو ربما تحاول إخفاء ذلك الوجه المخيف بمثل هذه المهن، كما أغلب الناس تفعل ذلك.

تراجع غاضبًا ثم سألته بنبرة تملأها الحدّة، وهو يبتعد عني بخطوات معدودة:

- ماذا حصل؟

أخذ نفس طويل ثم أجابني:

- سمعنا أن هُناك حربٌ أهليّة حدثت بسبب إنقلاب عسكريّ قام به جنديّ يُدعى إسماعيل، أحتجاجًا على ضعف الدولة في توفير الأمن الغذائي للشعب

قلت بصوتٍ هامس:

- تحققت نبوءته اللّعينة..

- ماذا تقول؟

لم أجبه، أكتفيت بالسكوت، مرّ على ذلك ساعتين، ثم جاء قرب فراشي يبحث بين الرفوف، عن بعض الضماداتٍ الطبيّة المُتبقية في الردهة، نظرت إليّه مباشرةً وقلت:

- ما رأيك بعمل هذا الجندي؟

لفّ جسده وقال بلهجةٍ تنمّ عن الإئتمنان والثقة:

- إنّه شجاع!! سيحرر هذه البلاد من الظلم والطغيان

- برأيك لماذا يفعل ذلك؟

- لأنّه يحب الخير للآخرين وعزم على تقديم نفسه فداءً من أجلهم!

- وهل أنت مقتنعٌ بذلك؟

- ألم تراه كيف أضناه الألم لنصرة المظلومين؟ هؤلاء الفقراء الذين لا يمتلكون قوت يومهم، لو رأيته كيف يفضّل نفسه سعيًا لتوفير أحتياجاتهم لما سألتني قط!

- وهل أنت مقتنعٌ بذلك أيضًا؟

- لا أفهم ما بك! نعم مقتنع!

- أنت مُضحك جدًا.. أتعلم شيئًا؟ لو تأملنا دوافعنا إلى فعل الخير سنجدها محصورةً بمتطلّباتٍ ذاتيّة؛ أي نُطلب بتلّك الأفعال تحقيق الرضا عما نكمنه إلى أنفسنا، سواء إشباع نقصٍ ما أو أي سببٍ آخر نحقق به الرضا عن النّفس. فلو دققت قليلًا يا أيّها العفريت البائس، وسافرت مع تلك الموجة الرعناء في النّفس عندما نرغب بفعل شيءٍ ما -جيدًا أو سيئًا- ستلاحظ أن هذه الأخلاق التي قد تبدو من بعيد مثاليةً وغير أنانيّة ، غالبيّتها تنبع من داخل رغبات الفرد ذاته أي كما قلت قبل قليل "تحقيق الرضا عن النّفس" وهذا يكون بالمرتبة الأولى ثم الموضوع المُحفز للفعل يُوضع في المرتبة الثانية كأولويّةٍ للقيام بهذا الفعل.

وأنا أرى قلقه يحوم حوله، كنت قد تذكرت، بأن هذه الاطار الذي كونته عن الإنسان، قد ساقه العم عيسى سابقًا، لكنّني تفوقت عليه في التفسير. على أي حالٍ، أكملت كلامي:

- نعم، وسأكرر ذلك حتى لا تفهم على نحوٍ مغلوط، أنا لا أقول بأنّ السبب الفردي -تحقيق الرضا عن النفس- وحده هو المحرك للسلوك الإنساني، لكنّي أضعه في الأول كمصدرٍ أساسي، إنّه المحفز الأكبر والأكثر قوة.

بدأ مختابًا مني لكني لم أسكت مطلقًا، رغم أنّي أبصرت جميع الصراعات الداخليّة التي تُنهكه من على ملامحه:

- نعم يا سعيد، جميعنا نفعل ذلك، ولماذا لا نفعل؟ فالإنسان مُنذ لحظاتهِ الأولى يبحث عن ثدي أمهِ، غير مُكترثٍ إلى إنتكاساتها ومزاجياتها وعذابها الجسدي الكبير. ثم بعد ذلك، يقتضي به الأمر في نهاية المطاف أن يُفتش كالضائع المخبوّل عن حياةٍ آخرى في عالمٍ ما، للتعويض عمَّ فاته رغمًا عنه، وهذا كلهُ خوفًا من العدم؛ لأن أيَّ فكرةٍ تُهدد وجودنا نرفضها ولا نستحسن قبولها أبدًا. ونفهم ذلك جيدًا، على عكس أقربائنا الحيوانات التي لا يتوارد في ذهنها فكرة الموت، وتندفع إلى النجاة غريزيًا.

سكت قليلًا ثم أكملت:

لذا ما هو أغلى على الإنسان من أناه؟ قل؟ ما هو؟ آهْ.. أتعلم ما هو السؤال الأهم من هذا كله؟ إنه كيف ستبدو قيمة أفعالنا إذا كان مطلبها الرئيس سدّ مطامعنا أولًا؟ وهل هذا يُلغي قيمة الإحسان فيها؟ أو يجعلها شيئًا آخر أقل مما هو عليه؟ أجبني أيضًا، كيف سنتأكد من مصداقيّة وتماثل دوافعنا أن قارناها بأفعالنا الصادرة في هذا العالم، تلك الدوافع تلك التي كانت قبل حين كشعورٍ خاطفٍ أو فكرة -أي قبل أن تعلن عن نفسها كفعل، وقبل أن تتعقد- كيف سنتلمس معرفة ذلك بموضوعيّةٍ حقّة؟ وهل هُناك في سياق حديثنا ما يمكن إدراجه ضمن الموضوعيّة من الأساس؟

- ما هذا الهراء الذي تتفوه به؟ بمثل حالك يتحدث في هذه الأمور من الأساس؟

- أجبني أن تستطيع ذلك..

- حسنًا! دعنا من هذه الترهات التي ذكرتها عن الحياة والموضوعيّة، ما الذي سيستفيده برأيك لو مات من أجل هذا القضيّة؟ أي رغبات تلّك أهم من الحياة؟ ألست أنت قبل قليل قلّت بأن أي فكرةٍ تُهدد وجودنا نرفضها؟

- هل هو مؤمن بديانةٍ ما؟

- وما دخل هذا بكلامنا؟

- أجبني فقط

- أجل، هو مسلم مستقيمٌ بحقّ، كان سابقًا رجل دين وله مؤلفاتٍ دينيّة مهمّة

- كلمني عنه أكثر..

- قبل أن يقوم بالتطوع العسكريّ، كان يجمع بالنّاس ليخطب بهم خطبًا دينيّةً وروحيّة، ينشر من خلالها روح الخلاص والتوجه إلى عبادة الله، كان محبوبًا لدى متابعيه؛ ولهذا لم يستصعب عليه أن يقوم بإنقلابٍ ضد الدولة، لكن ما علاقة هذا بما قلّته؟

- إنّه وإن مات فهو لم يمت بالمعنى الذي تفهمه أنت من الموت

- ماذا تقصد؟

- طالما لديه إيمانًا يقينيًا بأن عالمًا ما بإنتظاره، عالمًا يُرحب به بهتافٍ جماهيريّ ثائر، عالمًا مقتنع به بقناعةٍ لا تستطيع مخالب الشكّ تمزيق ثوبها. فأن موته يا قاتل الضفادع ليس إنزلاقًا مُفاجئًا من مُنحدرات الحياة كما تظن، بلّ هو إمتدادٌ تخطيطيّ للأبديّة، شيء يشبه شراء تذكرة سفرٍ والأحتفاظ بها لحين موعد إستخدامها.

أخذ يدمدم بكلماتٍ مُتقاطعة، فجأةً نظر إليّ بريبةٍ وأخذ يعدو في الإتجاه المعاكس حتى تعثر بأحد الأسرة المتلخطة بالدم، وأنطلق مهروعًا كأنّه يشاهد شبحًا ماثلًا أمامه.

حينها جاءت أختي تحتضنني وتبكي بحرقةٍ وفجاجة وتتطمن على صحتي كأنّها لا تصدق أني حيٌّ وأن بأستطاعي تعكير مزاج هؤلاء الأغبياء بين تارةٍ وأخرى.

كانت تقول لي كل دقيقتين "أعلم بأنّك لن تموت وتتركني وحيدة، أنا أعرف أخي". لا أدري من أين جاءت بهذا الحقّ أن لا تعيش وحيدة! أنحن مملون لأنفسنا إلى هذا الحد؟ مملون لدرجة أنّنا نتخاصم على تخديرها بالصحبة؟

على كل الأحوال، قامت أختي بنقلي إلى ممرٍ قصير قرب ردهتي لأتمشى قليلًا، على حد طلب الدكتور المخصص لمعالجتي. كان الممر يفصل بين الردهات جميعها، وبين كل ردهةٍ وآخرى حاجزٌ من البلاستيك الشفاف، وكانوا أغلب من تعرضوا للحادث موجودين هُنا للمعالجات الأوليّة.

كنت أترنح بينهم؛ لأشعر بالبرودة فجأةً، حد الأرتجاف. فقد كانت أفواه المستشفى تبتلع الجرحى بلا توقّف. ولا شيء في هذا الجحيم ذو الثلاث مترٍ يُؤكد على أن هُناك شيء يدعو للحياة، سوى خيوط الأمل العابرة من مدافئ الموت الدنيئة.

إن بقايا الأمل هذه، هي أعزّ ما يمكن أن تمتلكه تلّك المرأة التي تكاد صكصكةٌ واحدةٌ لأسنانها على زوجها الذي فقد نبضه للتو، تعادل صوت الإنفجار الذي حدث قبل قليل. وهذا الأب الذي يجادل صارخًا بضراوةٍ وخشونة، وجه الطبيب المفقر الخائب، مُبتغيًا منه أن تُلهمه تلّك الصرخات بطريقةٍ ما لينجو بإبنته من غير أن يقوم ببتر قدمها، وذاك الرضيع التي ينحب ويتقهقر غير عارفٍ لماذا أجتمع وجع العالم، كل العالم في جسده.

جميعهم، بما فيهم أنا، لا ندرك إلَّا في لحظتها، بأن ليس هُناك تقدمٌ للعدائيّة ونموٌ لها، إن العدائيّة مُتجذرةٌ ومتشابكة؛ لكن معظمنا يخلّط بينها وبين مظاهرها ويجعلوا منها كشيءٍ واحد. غير أن مظاهر العداء تتخذ أشكالها النهائيّة من التفاعلات المستمرة بين ما هو مكنونٌ في داخلنا، وما هو موجود في المجتمع؛ وبذلك، تكون هي نتيجةً للعدائيّة المتأصلة في أعماقنا. ولا أراها شرًا مُطلق كما يراها بعض الفلاسفة القديمون، إنّها نتاج غريزة البقاء فينا؛ غير أن وضعها بغير سلاسلٍ يجعلنا نرجع سلفًا إلى حالتنا البهيميّة.

أجل، أنا أقر، بأن النظر إلى الإنسان بهذه العدسة، يجعله كائنًا مشوه، غير مستساغٍ بالبتّة. إذن، وعلى فرض إنّنا لا نتقبل هذه النظرة عن أنفسنا، يمكن القول بكل جدية وصراحة، بإنّنا سنعيش بتخلّفٍ أخلاقيٍّ طويل الأمد، بسبب رفضنا وتأخرنا المتعمد لفهم هذه الحقيقة. متأخرين بفهمها ليس لشيءٍ، سوى لأنّنا نعلن عن إبادتنا بشكلٍ إختياريّ، عندما نتقبل كوننا كائناتٍ غير مرغوبة. وبهذا؛ أستطيع محاكمتكم جميعكم، فهل لكم أنتم، أن تتقبلوا ذلك؟ أسالكم، أجيبوني! إن كان في ذلك إبادتنا، فمن منكم يحب أن يسير نحو الإبادة؟ بالرغم لو سألوني أنا، لأعربت بأنّها ليست إبادة كما هم سينظروا إليّها، بلّ قبولٌ سلميٌّ للذات البشريّة كما هي، دون تلوّن، دون التعثر وراء طبيعتها.

لم يفهم ذلك حتى العم عيسى حين ودَّ بشغفٍ الإرتحال إلى أعلى درجات الألوهيّة فينا. إن هذا التوجه يناقضنا حتمًا. إنّها خيبة الإكتمال التي جعلته يقفز إلى هذا الحد من الطموح، الذي يبدو لي من أعنف الأرتطامات بالأرض.

****

سمعت جرس الإنذار، كان يعتصر السكينة كما لو أنّه دقَّ من أجل ذلك فقط. قالوا بأن هُناك دوريّة مسلّحة متجهة لنقل المواطنين إلى أرضٍ آمنة، بعيدة عن هذه التوترات السياسيّة.

كان ينقل لنا إشاعات بأن إسماعيل سيتغلغل هو وأنصاره هذه اللّيلة إلى داخل العاصمة، مُجردًا الرئيس فالح من منصبه، ويقدمه للعدالة العامة. الذين سيجرونه بأنفسهم زحفًا إلى حبل المشنقة، وسيقام ذلك عند ساحة الأعتصام التي بدأ منها حملته الكثيفة وتوعد بها للشعب بأخذ حقهم المسلوب.

لم أغتر بهذه الكلمات ذات شجنٍ وزعامة، التي يتناقلونها الناس فينما بينهم، عندما أطلقها وسط جمعهم الغفير، بلّ بدت لي كأنّها كذبةٌ أخرى سيكتبها التاريخ. أن التاريخ يعيد نفسه، لأن طبيعة الإنسان الغريزيّة لا تتغير، إنّما أشكال تطبيقاتها يطرأ عليها التغيير فقط.

آهٍ كم أحتقر هذه الدوامة اللّعينة، كما لو أنّها تقول ساخرةً منّا بين الفينةٍ والآخرى: "لدي مصيرك يا هذا، أتريد معرفته؟ أقرأ الماضي، أقرأه لتعرف النهاية؛ أما شكل النهاية، أنت والباقون ستتكفلوا بتحديد كيف ستقام مراسيمه، أنتم الذين ستتفقون على نوعية القبور التي تفضلون أن ترقدوا فيها، على شكل الزهور التي تحتفون بها، على ألحان الأغنيات، على كل هذه الأشياء، فلست أنا بالذي يجبركم دومًا، وهذا من فضل كرمي وطيبتي".

****

خرجت قليلًا إلى خارج المستشفى بعدما اخبرونا بأن الأمور هدأت، وخفّ الاشتباك الحاصل، كانت البناية تشهق من فرط العفن، سلالمها تتآكل بسبب الدوس المستمر، يئنّ فيها الحديد، ويُجلجل البلاط المتكسّر تحت أقدام المرضى كما لو كان ينوح معهم. الأرضية مغطاة برقعٍ من الدم اليابس، والبول، والماء الكالح، في رقصة عبثية لا يدري أحد من بدأها ولا من سيُنهيها.

الهواء رطب، خانق، مختلط برائحة الأدوية الرخيصة والعرق والخدر والاحتضار. تهتزّ المراوح من السقف كأنها مشانق دُوّارة، وتصدر أنينًا شبيهًا بنشيج امرأة فقدت أبناءها على مراحل. أما النوافذ، فهي مغبرة، كأنّها عيون عملاقة شاخصة نحو موتٍ بطيء، يرفض أن يُغلق جفنه.

تمضي العجائز المتكئات على عكازاتٍ مائلة، يجرجرن أجسادهن وسط طوابير لا تنتهي، ويغرق الرجال في صمتٍ رماديّ، كأنهم أقواس صلوات لم تُستجب.

أما الكوادر الطبية، بوجوهها المطفأة، تتحرك كدمى مشدودة بخيوطٍ رخوة، تملّ من الوجع، فتداويه بفتور، وتملّ من الشكاوى، فتستبدل الاستماع باللامبالاة. لا أحد هنا يرفع صوته، فالصوت وحده مريض آخر ينتظر دورًا لن يأتي.

عمومًا، طلب الدكتور أن يرجعوني إلى ردهتي. فلم أشعر بالوحدة، كان الموت رفيقي في هذه المناسبة. ولم ينتابني الملل من مطالعة هذه الجدران، يا لبؤسها! لقد شهدت كل شيء من غير أن تقول لا، لكن من قال بأنّها لم تقل لا؟ ربما صرخت، صرخت بقوةٍ، لكننا لسنا بهذه الرهافة التي تهيئنا بأن نستطيع سماعها.

حينها، دخلت ممرضة إلى ردهتي بخطوات متأنقة، كأنها تتسلل بين الضوء والظل، شعرها الأشقر الطويل يتمايل خلفها كل مرة ترفع فيها يدها لتعديل المعطف الأبيض. ابتسامتها كانت مشرقة، تشع دفئًا يملأ المكان، وعيناها البنيتان تراقبانني بدقة وحنان في الوقت نفسه.

تحركت بسرعة ونعومة في آن واحد، اقتربت من سريري بخفة، وكأن كل خطوة محسوبة لتجنب أي صخب، بينما أصابعها الرقيقة تلمس المحلول الوريدي بعناية تامة، تضبطه دون أي ارتباك.

تنهدت بخفة، وخفّت ابتسامتها إلى نظرة مطمئنة، وكأنها تقول: "لا تقلق، كل شيء سيكون على ما يرام". كان دخولها أشبه بموجة من اللطف والحركة المتناغمة، جعلت كل شيء حولي يبدو أكثر دفئًا وحياة.

طلبت من أختي مريم أن تتنحا جانبًا، لتضع لي مع المحلول الوريدي جرعةً من الباراسيتامول. عرفت ذلك من لون القارورة التي كانت تمسكها، لكنّني شعرت بأنّني أخذتها مُنذ أول نظرةٍ لي لها:

- أهلًا يا سيدي، نظرًا لحالتك سأحقنك بجرعة...

- الباراسيتامول نعم، أشكركِ على ذلك

ضحكت قائلةً:

- لدينا من يعرف سرّ مهنتنا، يجب علينا أن نهرب! لقد أكتشفوا أمرنا

وجدت فيها حسًّا للدعابة ما يمكن أن يجعلني أبتسم عن طيب خاطر، أن أضحك بالفعل، ليست كضحكاتي السابقات، التي تشوبها التعاسة. فقد كان وجهها ينمي كل أنواع الأشواق الغامضة، والشهوات المنسيّة. فما أن سمعت صوتها حتى غمرني دفءٌ لم أعتده بالمرّة، لا سيما أن هذه الكلمة "الدفء" دفنتها عند مقبرة الأسى مُنذ سنينٍ طويلة.

بعد عشر دقائق، أحسست بالباراسيتامول وهو يُداعب أوردتي، ويسير في منعطفات أحشائي المُظلمة، كما يسير الموت في جميع آمالنا، أحشائي التي لا تبالي بما يحصل لها إطلاقًا. أحسست بها أيضًا، كان بيننا في هذه اللحظة محادثات لطيفة دثرها تأثير الدواء، لأجد نفسي بعد لحظاتٍ وأنا أنظر إليها، أغطس ببطءٍ في محيطات الوعي السّاكن، الذي يُدعى مُنذ القدم بالنوم.

(البارت السابع)

بعد يومين أنهيتهما في المستشفى، كُنت أسمع الناس يتناقلون خطاب إسماعيل الذي ألقاهُ عند نفس تلّك البقعة المريبة، ساحة الإعتصام، سميت بعد ذلك بإسمه، "ساحة إسماعيل".

كان خطابًا ثوريًّا، مشحونًا بالرّحمة والوعود التحفيزيّة. خطابًا لا أستطيع إنكار جاذبيته عليهم وحضوره العنفوانيّ بداخلهم. كما لا أستطيع إنكار بلاهتي حين قمت بتصديقه للوهلة الأولى حينما سمعته من أحد المرضى الملقون على تلك الأسرة المعدنية، التي تبدو أنها صنعت لا لشيء، سوى لإهانة أجسادنا الرخيصة.

على أيّة حال، أشتغل التلفاز فجأةً، كان الرئيس فالح يصعد على خشبةٍ صغيرة، قاعدتها مربعة الشكل، ويقف بمسافةٍ عنه شخصًا ذو بُنيةٍ متينة، يطغو الخضوع والرهبة على من يشاهد هيئته، وإن رفض ذلك عمدًا. كان يغطي وجهه بقناعٍ أسود، يكاد يظهر منه لون عينيه، قناعٌ من قماش يبتلع كل تعابيره الإنسانيّة. كان واقفًا بثباتٍ غريب، ظهره منتصبًا كرمحٍ، وذراعاه تهبطان إلى جانبيه في هدوء من يعرف أن لا حاجة لإظهار القوّة حين تكون جزءً منك.

بدأ يتقدم نحوه برياثةٍ مُهيبة، ليضع حبل المشنقة حول رأسه، ولم يرجع ليتأكد من إنّه وُضع بطريقةٍ غير دقيقة؛ بلّ أكمل ذلك بأقل من خمس ثوانٍ، كان يعرف ماذا يفعل، كأنّه خُلق من أجل ذلك فحسب. أتعلمون؟ أتعلمون ماذا يعني أن تكرس حياتك على هذا النحو؟ أتعلمون حقًا؟

أطفأت أختي التلفاز قائلةً:

- هيا بنا نرجع إلى المنزل، والدتنا بقيت وحدها

- هل تعلم بإنّنا في المستشفى؟

- ربما...

كانت عيون الدبابات ترمقنا من خلف مرايا الباص، وكل من فيها مُحدبٌ رأسه تحت قدميه. إن هذا الركوع الجماعيّ الذي لا يشبه أي أنواع الركوع المُعتادة، إنّه يجعلنا نقدّس الوقت الذي قد تبقى لنا، إنّه إعترافنا الوحيد بأنفسنا. آهٍ من كل هذا، فمن منّا يستطيع أن يُنكر هذا التوجس وهو جالسٌ بوقارٍ إستثنائيّ على إحدى المقاعد الفارغة تلّك؟ من له القدرة أن يرفض تجواله بيننا؟ من له الشجاعة أن يعترض على رغبته بمشاركة مقاعدنا؟

جلسنا جميعًا في الركان الخلفي للباص، تريد أن تتفقد ما خلف المرايا لكن الخوف أكبر من ذلك. الأم تمسك بيد طفلها بقوة، وهو يتلوى بين قدميها، ويحرك ساقيه بسرعة كلما سمع صوت رصاصة بعيدة. شاب يمسك بالمقبض، ويترنح مع كل مطب، بينما المسن المريع، برغم خوفه، يلتفت بين الحين والآخر نحو النوافذ، كأنه يحصي الدبابات في الخارج. وحفيده يضغط على عصاه، يمد رجله لتثبيته. وفتاتان تجلسان على المقعد المقابل، تتحركان في مكانهما، رغم انخفاض رأسيهما، يبدآن بالتمويج على المقعد بعنف كلما ارتج الباص، ثم تتبادلان همسات سريعة ومكتومة.

كل حركة، كل ارتجاج، كل صوت معدني من الباص أو دوي الرصاص يجعل الجميع يتشنجون ويشدون قبضاتهم على المقاعد، وكأن أجسادنا تتكلم وتتوتر عوضًا عن الكلام.

أخذنا هذا الطريق المريب، نُثير الشفقة في بعضنا البعض، ونتقن مع كل تأخرٍ في الوصول، أقسى مراحل الشفقة حد إمتناع النظر إلى الآخر. إذ من أمتيازات الشفقة حينها، إنّها تحرضنا على الأشمئزاز أيضًا.

كُنت رغم ذلك، أفكر في تلّك المُمرضة، من هي، ما قصتها؟ ومن تكون؟ وهل هي موجودةٌ بالفعل؟ إن هذا الشعور الذي راودني بقربها لا يمكن الإتيان بمثله، كما لا يمكن لي الإقرار بوجوده حقًا. فلم يكل قلبي من رؤيتها بهذه الأيقونة العذبة، إلَّا إن في داخله كرهًا لها أيضًا.

بعد أن عبرنا المنطقة الخطرة، اتكأت على مرايا الباص، رأيتُ المارّة، لا وجوه لهم، فقط رؤوس مرتبكة، أكتافٌ مترهلة، وخطوات سريعة لا تعرف هدفها. أطفال صغار التصقوا بجدران الأبنية، عيونهم تتلصص على الباص من وراء أعمدة الكهرباء المحترقة، ليسوا بفضول الطفولة، بل بريبة عجوزٍ فقد ثقته بالحياة.

كان كل شيء من وراء المرايا يبدو أقرب للوحةٍ زيتيتة قديمة، ألوانها باهتة، وحوافها تتآكلها العتمة، بقايا مدينة تحاول أن تخبئ انهيارها خلف تكرار الحركات اليومية. حتى السماء لم تكن سماءً، كانت مجرد مساحة فارغة تترنح فوق أسطح المنازل، يمرّ فيها دخان غامض بلا اتجاه، يتلوى وينحسر في ثنايا المشهد المائل داخل الزجاج. فقد رأيت عبر تلك المرايا، وطن يركض خلفنا، يلهث، يُلوّح بيدٍ مبتورة، ويُحدق فينا كمن ينتظر خيانتنا الأخيرة.

أنعطف الباص بنا، كان على الجانب الآخر من الطريق، أرى الأولاد يلعبون بين المياه الآسنة، يصنعون من قناني البلاستك سفنًا، ومن الطين قلعةً، ومن الغياب لعبةً لا تنتهي. ورجال يجلسون على الكراسي المهترئة أمام محال الحلاقة والمقاهي الصغيرة، يتحدثون بأصابع مضمومة حول سجائر متآكلة، لا يرفعون رؤوسهم فقط حين تمرّ سيارة شرطة. أما النساء، فكنّ يسرن وكأنّهنّ يحملن التاريخ فوق ظهورهن، عباءاتٌ سوداء تُلامس الأرض، عيونٌ حذرة لا تتطلع إلى الأمام، بل تراقب ما خلفهن، وما خلف الخلف. كلّ حركة لهنّ تشبه اعتذارًا، وكلّ صمتٍ في شفاههنّ يماثل قصيدةً لم تولد.

لكن... ثمة شيء آخر كان يثقل عليّ أكثر من ضجيج العجلات وعيون الدبابات وهؤلاء الناس العاديون... شيءٌ لا علاقة له بكل هذا، أو ربما له علاقة خفيّة لا أفهمها بعد.

مهلًا!

تذكرت.. لي شأنٌ آخر، لا أدري لما لم أتجرأ أن أصيغه بجملٍ واضحة على مرّ هذه السنين التي عشتها، لكنّي هذه المرة سأحاول إفشاء ذلك لنفسي جاهدًا بإخلاص.

أعلم أن المكان والزمان ليسا مناسبان تمامًا، أعلم كذلك أن الأحداث القائمة التي نعيشها ليست ملائمة للحديث عن مثل هذه الأمور التي لا أنوي قولها سوى لنفسي ولجدران غرفتي المُتصدعة فقط، عندما أسرح فجرًا في تأملاتي وهواجسي النتنة.

لكن ماذا أفعل؟ ذلك عبءٌ كثيفٌ، ماردٌ، ينبغي سحقه. نعم، ينبغي أن أفعل ذلك قبل أن أفقد صوابي. فقد لاحظت بالدقّة، إن هذا ترحَّل العشوائيّ في الأسئلة يشعرني بأوج نوبات القلق، قلقٌ من شيءٍ ما يكون مركونًا في عوالم المجهول. فما أن أُطيل البقاء عند هذه التساؤلات المتضاربة بين مضامينها، أقوم بوضع نفسي بمرتبةٍ أقل مما أنا عليه، أو أن أتساوى بدرجةٍ ما بالمتسوّل، ذلك الذي لا إمكانيّة له أن يترفه بالإجابات كما يفعل الجميع.

فها أنا أكتشف مؤخرًا، وبظروفٍ غير مُتطابقة لما يجري لي، كعادة الإكتشافات الغامضة، روح السؤال الحقيقيّة، هذه الروح التي وإن تلاشت أمام ناظرنا، فهي تقيم خيمةً كالخيام الشتائيّة خلف قدرتنا على التساؤل؛ للأرتياح قليلًا، ثم تنتقل فيما بعد، إلى غياهب النسيان المُفزعة دون أثرٍ يُلّحظ.

هكذا هو السؤال، ينهشك ببطءٍ ويغادر، ولماذا يغادر؟ لأنّه يظن بإننا مهما هملناه سنرجع ننبش ماضينا للبحث عنه. وإذا لم نفعل ذلك، فسينبثق مجددًا في حالاتٍ شكوكيّةٍ جديدة، صورًا غير مرتّبة، قافزًا كالأرنب ليقول لنا: "ها أنا ذا أمامك"، كم أنت نرجسيٌّ عندما ترى بأنَّك كل ما نملكه نحن الفوضويون الفضوليون، كم أنت نرجسيٌّ عندما تظن بأنَّك غاية الوجود وما يجول

العالم حوله في مختلف الأمصار، لكن للأسفِ الشديد، كيف لنا، نحن الذين نهرع عند دخولنا عتبة قصور الجواب الفاجرة أن ننكر ذلك؟

****

بعدما أنقضت ساعةً ونصف، تقيأنا الباص من داخل أبوابه بغير آوانٍ وصبر. فقد أوصلتنا قبال المنزل بالضبط. حينئذٍ، وقفّت قرب رصيفنا المُتبدد والمملوءِ بشقوقٍ كثيرة، رصيفنا الذي يشبه أنسانيتنا الحاليّة. كنت أشاهد إضطراب أختي مريم الذي عبر الشارع قبل وصولنا إليّه، فقط كان بمثابة فردٍ من العائلة، يعيش بيننا طيلة هذه الأعوام التي قضيناها معًا. ولا أستطيع تجاهل حضوره الآن، كان مُفرط الحساسيّة، فمن شدة هيجانه، أفقد أختي الطريقة التي تمسك بها مفتاح الباب وتخرجه من بين أغراض حقيبتها المكركبة.

أستمرت مُناديةً إياها، بنبراتها الحنوّنة تلّك، وتطمنها على حالنا، على حالٍ لم تسأل عنه بالمرّة. كُنّا ننتظر أيّة حركةٍ أو صوتٍ خافتٍ يُنبأ عن تواجدها فيه. لكن، وبعد يأسٍ يرتدي عباءة الخوف، إذ بأختي تركض بإتجاه غرفتها، تتضارب بالطاولات التي أمامها من دون أن تعير إهتمامًا لأي تعرضٍ للسقوط أو الخدش. فما هي إلّا أجزاءٌ من الثانيّة، حتى إلتهمت براثن صرخاتها كل السِكون الهارب من ضوضاء العالم، ليكون هو نفسه ضوضاءً جديد.

التهمتني أنا أيضًا، فلكم أكره تلّك الأصوات العاليّة للبشر، أكثر من أي شيءٍ آخر، أكثر من صوت الأنفجار نفسه الذي حدث قبل حين. إنّه يسبب لي ثقلًا يتمرغل فوق القلّب بمتادٍ لا متناهيّ، تمادٍ يحمل في طياته عبثيّةً صاخبة. وفي الآنيّةِ ذاتها، تسير هذه العبثيّة رغمًا عنها في نظامٍ ما يُليق بإستمرار ثُقلي. وآسفاه، أُمي تُوفيت! كيف لي أن ننسى أن علاجاتها قد نفدت...

****

كنت قد تذكرت، أمي قد وصتني بشراءْ قبرٍ لها قبل خمس سنوات، حيث أذكر أنني دخلتُ مكانًا لا أتذكره طريقه بالتحديد، لكنني شعرت حينها كأنني داخل إلى سوقٍ لا يبيع طعامًا ولا ثيابًا، بل يبيع موتًا مُغلّفًا بأحجارٍ بيضاء.

سرتُ في الأزقة الضيقة أبحث عن بيت ذلك الرجل الذي يبيع القبور بأرخص سعرٍ هنا، كانت بيوتهم متشابهة على نحوٍ يثير الريبة، جدران عالية بلونٍ ترابيّ متشقق، أبواب خشبية ثقيلة مطلية بأخضر باهت، كأنها تقاوم الصدأ والريح بذكريات قديمة. فوق الأبواب تتدلّى مصابيح صغيرة صفراء، بعضها مكسور وبعضها يشتعل بخفوتٍ كأنّه يذوب مع الليل.

السطوح مكدسة بصفوف طابوق وأكياس إسمنت جافة، كأن البناء هنا لا يكتمل أبدًا، دائمًا في حالة استعداد لإضافة غرفة أو هدم أخرى. في الشبابيك ترى ستائر سميكة من قماش مطرّز بزهور باهتة، محجوبة أكثر مما هي مزينة.

أمّا الداخل -حين يُفتح لك الباب- فتشتمّ رائحة بخور ممزوجة برطوبة الجدران. غرفة ضيقة تستقبلك، فيها كراسي خشبية قديمة، وعلى الجدران صور لمراقد مقدسة مؤطرة بزجاجٍ مكسورٍ عند الأطراف. وعلى رفٍ جانبي تجد دفاتر غليظة مرصوفة بجوار مسبحة كبيرة وعلب شاي.

الغريب أنّ هذه البيوت تجمع بين الفقر والثراء في آنٍ واحد، سجاد مهترئ يجاور ساعات جدارية فخمة، ومكانس قشّ تقف قرب خزائن مطلية بذهبٍ زائف. كأن المال الذي يجيء من بيع القبور لا يُحوّل حياة ساكنيها إلى رفاهٍ صافٍ، بل يتركها معلّقة بين البساطة والتكدّس.

وأنا أتجوّل بين تلك الدور، شعرت أنّ الهدوء فيها ليس هدوء أحياء، بل صدى موتى يُخزَّن في الجدران.

في تلك اللحظة اقترب منّي رجلٌ بوجهٍ جامد، صوته فيه نبرة تاجرٍ أكثر مما فيه نبرة متديّنٍ أو خاشع:

"ها، تريد مكانًا دائمًا لوصيتك؟ أم تبحث عن شيءٍ مؤقت؟"

تفاجأتُ بالسؤال، فقلت:

– "قبر... قبر.. مكانٌ يُصان ولا يضيع."

نعم وصتني أمي أن أقول ذلك "مكانٌ يُصان ولا يضيع"، ضحك قليلًا، ثم أخرج دفترًا ثقيلاً وضعه أمامي كمن يفتح قائمة طعام:

"هنا الصفوف الأمامية.. قريبة، مهيبة، لا يمرّ أحد إلا ويقرأ الفاتحة، غالية لكنها تستحق. وهنا الصفوف الوسطى، متوسطة السعر، مقبولة، لا كثير زحام ولا كثير عزلة. أما الخلفية، رخيصة، مثل من يشتري بيتًا على أطراف المدينة، يزوره القليل فقط."

شعرتُ للحظة أنني لا أشتري قبرًا، بل أستأجر شقة لسنوات..

سألته:

"وإن أردتُ أن يكون المكان مظلَّلًا، فيه بعض السكينة؟"

كنت قد تذكرت أنها طلبت مني ذلك. مدّ رأسه نحوي وقال بصوتٍ أخفض:

"هذه إضافة، ندبّر لك سقيفة بسيطة، لكن السعر يرتفع.. كل شيء له حساب."

وقفتُ صامتًا، أسمع وقع كلماته في داخلي، كأن الموت صار بضاعة تُغلف بالحجارة وتُباع كقطع أثاث.

ناولته المبلغ وهو يبتسم، ثم ختم ورقة صغيرة، دفعها بيده إليّ وقال:

"مبارك.. صرت صاحب أرضٍ أبدية."

كان هذا المال الذي اشتريت به قبرًا لها، جمعته أمي من عملها كخياطة طوال حياتها قبل أن تمرض كثيرًا. فلقد خرجتُ وأنا أشعر أنني لم أشترِ قبرًا، بل شاركتُ في مزادٍ على الطمأنينة.

****

ذهبنا أنا وأختي مريم إلى دفنها، في نفس ذلك القبر الذي اشتريته قبل خمس سنوات. لكن ما يدعو للتأمّل، إن هذه الحُجر الصغيرة التي نسميها قبورًا، لا تختلف كثيرًا عن حياتنا، بلّ هي أقرب لأن تكون كذلك.

بعد إكمالنا للدفن، قُمت بإسناد ذراعيَّ على شاهد القبر، واتكأت برأسي عليه، ثم خاطبتها قائلًا:

"أتعلمين أمرًا يا أمي.. أمي العزيزة، تعلمت منك.. تعلمت شيئًا بالغ الأهميّة! شيئًا لا يقدر بأيّ ثمنٍ باهض. تعلمت أن النّاس أوغاد، نعم أوغاد! فإنّهم يتداركون ذلك بعد فوات الآوان، أما أنتِ.. أنتِ علمتيني ذلك مُنذ الثامنة من عمري".

أخذت أختي بيديَّ وعانقتني بشدّة، كأنّها تعترف بعدم جدوى بقائها للعيش، لكنّني لم أشعر مثلها بالحزن، كنت أراقب من البداية، سيولة الإضمحلال في جميع الأشياء. فما هذه الحياة إلَّا تدريبٌ طويل لمواجهة أول ثوانٍ من لحظات الموت؛ حيث أن الراحة فيها، كمرفأٍ عائمٍ في ضبابٍ خريفيّ، ضبابٍ أبديّ، لكن من منا يستطيع أن يستوعب ذلك؟

إن الوهم أشدُّ إبتهاجًا من الحقيقة، أن الحقيقة بطبعها لا تبتسم. وكيف سننجذب لمن لا يبتسم لنا؟ إنّنا نكره هذه الوجوه العابسة، هذه الوجوه المترهلة، الشاحبة، النحيلة، فحيثما تواجدت، تواجد الحقد أيضًا. يا لسذاجتنا، يا لغرورنا الذي يسقط من أول كلمة، كيف لنا أن نحزن؟ ما أحقيتنا هذه بالحزن طالما نحن الذين نُسبب مُنذ الآلاف السنين خرابًا في كل شيء.

وكيف ننتحب على فقيدٍ من ذوينا، ونحن الذين نجرّد نفحة الروح تلّك في الكائنات التي نعتقد بفائدتها لنا، من غير أن نحسَّ ولو للحظةٍ واحدة، بإنّنا مجرمون. لكن، إن أردنا أن نعيش بأريحيّةٍ أكثر، وبأقل خطرٍ على بعضنا البعض، هو أن نتقبل إقتحام الأشياء التي تنخرط في حياتنا فجأةً، وقبولها من حيث الحضور فقط، لكن كيف؟ هل لنا تلّك القابليّة أصلًا؟ ربّما تزعجنا الأقتحامات المُفاجئة أكثر من تلّك التي نكون نحن سببًا في حصولها لنا.

إنّها تذكرنا بضعفنا الإنسانيّ، تُهدد ملكيتنا الغامضة، تلك الملكيّة غير الممنوحة لنا من الأساس، ملكيتنا للوقت والأرض والأشخاص والشعور، هذه التي لا أدري من أين جئنا بها حقًا. فلو رغبت تعريف الإنسان؛ لقلت بإنّه، كائنٌ يمشي على قدمين، يحب السيطرة، كما يحب أن يكون خاضعًا في الغالب.

آهٍ يا إيّتها الأنا، يا هذا الشيء الذي لا يُحتمل، إنّه لأمرٌ مُثبط للهمة، أن أحادث نفسي بهذه الأحاديث الآن، فمن هذا الذي يتسائل مُطفحًا عقله بتلّك الأفكار عندما يكون حاضرًا في مراسيم دفن أمه؟

ربّما جنَّ جنوني أكثر من السابق، أو ربّما أنا أشدُّ النّاس تعقلًا، من يدري؟ أو ربما أُكثر الكلام، لا بسبب هذا ولا ذاك، إنّما لكي أتخطى الإعتراف بعدم إهتمامي بموتكِ، نعم فقد لا يسامحني أحد لأنّي أقول لكِ ذلك، لكن كيف ستزول هذه الذكريات القاسية التي تجمعنا يا أمي؟ كيف سأنسى تلّك الكدمات؟ تلّك الأشباح البدينة التي تحلّق فوق رأسي ليلًا عندما أحاول أن أغمض عينيَّ الصغيرتين، تلّك الأشباح التي تُدعى بالكلمات.

فأنا أعلم مُنذ ولادتي، أن عمر الذكرى يتجاوز عمر الإنسان كله، بلّ يصعد فوق فكرة العمر نفسها، متخطيًا كل العواطف التي يمكن أن تُعاد بنائها وتوجيهها إلى ترتيب رابطةٍ تجمع بين الآخرين. ولذا لو أبتعدنا قليلًا، لنخرج من مشهد الذكرى الفرديّ، إلى ما هو جماعيٌّ وعموميّ، سنفهم بنسبةٍ كبيرة، هذا الكره الذي نكمنه إلى بعضنا الآخر؛ لأنّنا ببساطة، قد نشأنا بحضن ذكرى مشبوهةٍ ظلت تعاود حضورها بطورٍ تأريخيٍّ بغيض، ذكرى من ماضٍ تربى بعشٍ ضخمٍ وهائل، عشٍّ بُنيَّ بمخلفات الحاضر المرميّة عند حاويات القمامة الخاصة بمستقبلنا.

إنّها لعنة أن نكون إنسانًا، أي بمعنى أن نكون كائنًا يتذكّر بهذا التعقيد المقيت. أوليس ذلك مُخجلًا يا أمي؟ أن نهرب من عارٍ لنتلفّلف بعارٍ آخر يُمكن تبريره؟ أوليس ذلك مُضحكًا يا أمي الغالية، يا أمي الحبيبة، أوليس ذلك مُبكٍ أيضًا؟ أعلم أنّكِ تفهمين العطف أكثر منّا جميعًا، لأنّك أكثرنا قساوةً وغِلظة. فكيف تُفسرين بشاعتنا هذه؟

حينئذ، بعدما أنفصلت عن نفسي فجأةً، أنتبهت إلى أختي، كانت تضرب نفسها بشراسةٍ مُرعبة، فجعًا على وفاتها التي لم تتقبله إلى هذه اللّحظة، قلت لها:

- أنّهضي يا أختي، علينا أن نرجع إلى المنزل قبل أن تغرب الشمس، سمعت بأن هُناك أشتباكاتٍ مُسلّحة وقعت قرب منطقتنا بين الحزبين، حزب المناهض لأسماعيل، وحزب الرئيس السابق فالح. هيا بنا، هيا أنهضي

وأنا أرفع بها، قالت بحيرةٍ وغرابة:

- أ... أي... أين نذهب؟

- إلى المنزل

- منزل.. هل لدينا منزل؟ لا يوجد منزلٌ بعد الآن

****

بعد ساعتين، وصلنا إلى المنزل، كان هادئًا لدرجة إننا قد فُوجئنا بأن دواخلنا لها أصواتٌ لم نألفها طوال حياتنا، صوتٌ يذكرنا بأن نهدأ، وصوتٌ يذكرنا بأن نصرخ، وصوتٌ لا يذكرنا بشيء. هذا الثالث تحديدًا، هو ما يجعلنا نتساؤل بريبةٍ، من نحن، لا من هو.

كانت شبابيك البيوت التي مررنا بها عند رجوعنا إلى المنزل، مُغلقةٌ تمامًا، خائبةٌ، وفارغةٌ من أي أنواع السلام، بلّ كانت بيوتًا محشوًّا بالهلع والرهبة. وكانت تتوقّف الحافلة التي ركبناها أنا وأختي عند كل شارعٍ رئيس يفصل بين منطقةٍ وآخرى؛ لمدة عشر دقائق، ليلّتف حول جوانبها كلابًا هائجةً وضخمة، مهطلةً لعابها الذي يفوح منه رائحة الرذيلة، من غير توقّف.

حيث إن بنادقهم مُعبأةٌ بالعويل، ورفوف جيوبهم تملأها القنابل المُميتة. ويزداد إرتباكي أكثر كلما رأيت بعيونهم القبيحة تلّك، إنتظارًا جامحًا لأي نمطٍ من النباح؛ ليظهروا بذلك، أبرز ما عندهم من شناعةٍ بإسم الحفاظ على الأمن.

ولا أنسى كيف كانوا يتفحصونا بطريقةٍ نشعر من خلالها بإننا مذنبون على شيءٍ، لا ندري ما هو، إذ هذا الشعور الذي نشعر به، نفهم منه كم كُنا شديدي الذنب، على خطيئةٍ تُرعبنا حدَّ الذعر، خطيئةٌ لا يعرفها أحدٌ سِوانا.

ثم بعد ذلك، نفتح شريط خطايانا ونشاهده كله، دفعةً واحدة؛ لنغدو خائفين من أن نُحاسب وندفع ثمن وزرها بعد طمسها كل هذه السنين. ماذا نسمي هذه الحالة؟ يجب تسميتها، حتى يُسهل دراستها، لكن من هذا المتفرغ لنا؟ أن آخر همومنا الحديثة، هو حال الذي ندعوه نحن بالإنسان.

جلست بهدوءٍ، على الكرسي الذي كنت أتوارى خلفه عندما تغضب أمي مني، ووضعت يدي على الطاولة المقابلة منه، وأطبقت جفوني الثقيلة ربع ساعة. كان صوت الأذاعة مُحملًا بألحان العود الذي يعزفها نصير شمه، مُتسلِّلةً إلى أكثف دواخلي ظلامًا؛ لأتسائل بعدها مرتعش اليدين -ولست أبالغ أبدًا- إذ كيف أتأكدُ من كونهم أُناسًا طالما لا تدهشهم الموسيقى؟ فها أنا على شاكلتي مُنذ زمنٍ بعيد، أُحذر نفسي منهم؛ لأنّهم لا يسمعونها. حيث إن الأمر المُحير بالنسبة لي، أن الآلات الموسيقيّة جمادات، موادٌ صلبة، جوفاء، خالية من أيّ حسٍّ إنسانيّ، مع أنها أكثر من يفهم طبيعة الإنسان ويؤثر بها.

ولا أتغافل عن المواقف العديدة التي أنقذتني الموسيقى فيها من الإنتحار، ولا أقصد مُطلقًا بأن أحشو المسدس بالرصاص وأفرغه في منتصف رأسي، هذه حماقة، بلّ أن أتنازل بوداعةٍ قصوى إلى أشد رغبات العدميّة، تلّك التي تجعلك تنسى حتى من أنت، لتأخذ هذه "الأنت" صورة ذكرى غير مُسلية، ولا شيء فيها يُثيرك على التذكر. لتغدو بعدئذ، كسلعةٍ تخص شخصًا آخر، شخصًا لا تعرفه، لا من بعيد ولا من قريب.

****

بعد وقت قصير، سمعنا صوت أطلاق النار من جهتين مجاورتين، وأشتاح صخب سير الدبابات رتابة منزلنا، وأرتفع معها ضجيجُ أقدامٍ تهرول بإندفاعٍ إحتفاليّ؛ لأقفز حاميًا أختي مريم، وأسحبها قرب الطاولة إلى أن نستقر تحتها. وفي الخارج، كانت أصوات الصراخ تتداخل مع وابل الرصاص، وهدير عرباتٍ مكشوفة تتأرجح في اندفاعها، فيما يتقاذف المسلّحون خلف الجدران المهدّمة، يختبئون لحظةً ثم ينقضّون كأشباحٍ مسعورة، يطلقون دفعاتٍ متقطّعة فتردّ أخرى أعنف منها، تلمع معها فوهات البنادق وتتصاعد غيوم البارود الملبّدة. وتسرّبت بين هدير الرصاص صيحات نساءٍ مذعورات ينادين أبناءهن، وبكاء أطفالٍ يرتجف في الأزقّة، فيختلط كل ذلك مع صهيل كلابٍ ضالّة فزعة، وكأن المدينة بأكملها تُرمى في أتون فوضى واحدة.

ثم أشتد الإشتباك فيما بينهم؛ ليُكسر بإحدى الرصاصات العشوائيّة، زجاج نافذتنا الأماميّة؛ فأخذ يتناثر بقربنا كبلوراتٍ صغيرةٍ وناعمة. كنت أستطيع من خلال إنعكاساتها، أن أرى تجاعيد وجوههم ونحولها التي يبدو إنّها لم تنهزم أمام الرحمة الإنسانيّة، ولم تقدر على تذكيرهم بفنائهم القريب، وتنبههم بأن هذا الوقت الأخير والمتبقي للندامة والتوبة، لكل ما أقترفوه، وقاموا بفعله طوال حياتهم.

لقد فشلت هذه التجاعيد بأهم مهامها النبيلة! وآسفاه! وآسفاه! أما هؤلاء الشباب المجندون، اليائسون، ماذا يُمكن أن أقول بحقهم؟ إنّهم ضياعٌ يتنفس، ضياعٌ يلعن ويشتم ويتكاثر.

مرّ على حدوث إشتباكهم العنيف نحو ساعتين، كانت دمويتان وحيوانيتان بإمتياز. وكأيّ معركةٍ في العالم، سينتصر الأقوى. حيث أبعد الحزب المناهض لأسماعيل كل فردٍ من الفصائل الولائيّة للرئيس السابق، وأزدادوا سيطرةً على المُدن الآخرى شيئًا فشيئًا. وأرتفعت في الجسور، والشوارع، وعلى أعمدة, والمرور، وفوق المنازل والمؤسسات الحكومية، والمحلات التجاريّة، في كل الأماكن تقريبًا، وجه الرئيس الجديد، السيد المُبجل والمُناضل الرؤوف، إنّه السيد إسماعيل. فليحيا الفارس الجسور،

فليحيا النبيّ، ثم يتبعها وابلٌ من التصفيّق، نعم هذه هي العبارات التي يرددونها مواليه في تجمهرهم، ولا يخفى على المقربين منه خصوصًا، إنّ الصور التي رفعوها له، كانت حريصةً لتصويره كأنّه المُنقذ الأخير المُنزل من أبعد آفاق السماء وسعةً، بألوانٍ شديدة البيض، وبشيء من التغييرات الطفيفة في ملامحه؛ ليظهر أكثر حكمةً وفتنة.

بعد مرور أيام، كُنت أُلاحظُ بتمهل، كيف كان يقوم بجميع تحركاته، تطلعاته، وخططه بالإستيلاء على عقولهم، كيف كان يحوز المعرفة، ثُم يؤسسها ويمنهجها حسب هواه ومصالحة الشخصيّة، بقدراته الرائعة، وذكاءه الإستثنائي، وتجلّى ذلك عندما قام بإحتكار الإعلام لنفسه. وعزّز ذلك، بعدما دسَّ تعاليمه ووجهها إلى بذر مفهوم حُب التضحيّة من أجل القائد والوطن، وزرعه في كل الكُتب التربويّة، وصولًا إلى المناهج الجامعيّة. كأي حُكمٍ من الطواغيت الذين عرفناهم سلفًا، لكن بأكثر عبقريّةً ودهاء، ومواكبة للتطورات الحضاريّة.

آهٍ من هذا الغباء الذي ينتشر أسرع من أي ذبابٍ صيفيّ، آهٍ يا شعبي المسكين، يا أيّها الأطفال الشائخون، ما الذي يُمكنني قوله؟ أن هذا يحصل أمامكم مرةً آخرى، إنّكم بفعلتكم هذه، تعيدون خطَّ نفس الأحرف القديمة التي نسجتها الحيونة الإنسانيّة بعنايةٍ فريدة، تلّك التي يطلقون عليها المؤرخون فيما بعد، بأسم التاريخ.

ولقد نوّه الأستاذ موسى لي عندما كُنا نُطيل نقاشاتنا بعد الحصة التدريسيّة:

"إن الماضي لا يموت، بلّ يتجدد، حتى نتوهم بأنه حاضرٌ جديد، لمستقبلٍ آخر"

كما بدأ إسماعيل بتغيير الكثير من القوانين التي كتبها الآخرون من قبله. وأضاف العنصر الدينيّ فيما هو مُتعلّق بحكم الدولة. ليضفي على حكمه شرعيةً إلهيّة، أي بمعنىً دقيق، هو عدل الله المُتجسد في الأرض.

وأيّ مجنونٍ هذا الذي سيأتي كي يعترض على شيءٍ في طريقة وشكل حكمه بعد ذلك؟ أن هذا الإعتراض يتجاوز ما هو ماديٌّ إلى ما هو وراء المادة نفسها، حيث يمكن عدّه من وجهة نظره، ونظر من يؤمنون به، تمردًا على الذات العليا، أي على الله. إذن، وبالنتيجة، يكون قتل المعترضين وتهميشهم، واجبٌ أخلاقيّ وضروريّ حتمًا، لا لأستدامة الحكم فقط، بلّ لتوسيع رقعة هذا الرّب وتداخله في مكونات هذه المعمورة. ومن ثمة، الحفاظ عليه بأمد ما يمكن.

أوليس ذلك مُدعاة للسخرية؟؟ أن يكون الطُغيان الذي يعتصرهم معقولًا ومُبررًا؟ وليس كأيّ تبريرٍ فارغٍ وفائضٌ عن الحاجة، هو، وكما يُشاع لهم، ويُنقل في المجالس ودور العبادة والإذاعات، صكٌ مدعومٌ وموقعٌ عليه من قبل لجنةٍ من الملائكة، أُقيمت بحضور الله وموافقته.

لقد أستشعرت في هذه اللحظة، عمق مشاكلنا، من خلال العوم والغوص في قراءة تاريخنا، إنّ فيه من المعاني التي تُكبل عقولنا ما يدعوني للأستهجان، ففي أحوالنا العامة، تضعف قيم الأداء والكفاءة مقابل قيم الولاء، ولهذا من السهل قيادتنا وتأثيثنا كيفما يرغب الراعي بذلك، وبثنا كجماعاتٍ من المغفلين في حظائر الدنيا النتنة، نحن الذين نُعاش فقط، وإلى الأبد.

على كُلٍ، لا أدري كيف، لكن أخذت الأيام أمامي بالجريّ، مُنزلقةً في وحل الزمان اللّزج، أيامٌ وسخةٌ وتالفة، أيامٌ مُنتشيّةٌ بأرخص الخمور التي يستحي الفقير المُعدم أن يتذوقها، أيامٌ تمر عليَّ كما تمر الكوابيس في الوعي، قبل أول لحظةٍ من اليقظة، وعند آخر لحظةٍ من النوم.

(البارت الثامن)

- إلى أين أنتِ ذاهبة يا أختي؟ الجو باردٌ جدًا

أجابت وهي تسعل وتتنحنح:

- سأبحث عن شيءٍ نأكله، أي شيء يُسكت أنين بطوننا

- التزمي الفراش، أنا سأقوم بلبس ردائي وأذهب

هكذا بدأت صباحي الحقير بعمرٍ قد تجاوز الثلاثون عامًا، لا أذكر كم هو بالضبط، لكن اليوم يُصادف المُناسبة السنويّة الثانية لذكرى رئاسة السيّد إسماعيل المُبجل. وكيف لي أن أتناساه عوضًا عن نسيانه؟ وكيف لي ألَّا أقول "السيّد" وألَّا أرفق بعد اسمه "المُبجل"! نحن نسمعها في كل مكان وزمان حتى باتت هذه الكلمات، مُلتصقةً معه، لا تفارقه، كعضوٍ في جسد.

كان السوق خاويًا، لا شيء فيه سوى الجوع والعربدة. وكان على مسافة مترين من الدكان الذي أريد شراء منّه بعض الطحين الأسمر، شخصٌ كبير السن، يرفع رأسه ويديه إلى أعلى السماء خاشعًا مُتذللًا، ويهمس بتكرارٍ رتيّب: "خذني إليّك، إلى نعيمك الأبديّ يا إلهي، إلهي الغفور الوهاب، خذني إليّك...".

وكان جواره، بمسافة متران ونصف -على أقل تقدير- فتاةٌ جميلة تتغنج بشفتيها الورديتان، رافعةً فستانها للعابرة المارين، أصحاب القبعات السوداء، والهيئات المنتفخة، وتحرك فخذيها الثلجيان وحمراوين بمرونةٍ وإثارة؛ كلاهما كانا بالنسبة لي سواء، إنّهما يطمحان لتحقيق نفس الشيء، الهروب من الألم. أي بمعنىً آخر، طلب الراحة، تلّك التي أضحت لهما كأنّها أسطورةٌ من أساطير أجدادنا الغابرة، ولكنّها رغمًا عنهم، ستبقى أغلى ما يتمنوه، وأعظم ما يقاتلون من أجله.

أعطيته ما أحوزه من المال، ورد لي على قدره أقل من ربع كيلو من الطحين الأسمر، أخذته وتمشيت مُسرعًا، لأنّني كنت حينها أشعر بأن ساقيَّ قد تصلّبا من شدة البرد، فرأيت تجمعٌ لأربعة رجال واقفين حول نارٍ مشتعلة داخل برميل نفطٍ قديمٍ ومتهالك. توجهت نحوهم، وأخرجت يديَّ لأتدفئ، كانت حواسي مُتجمهرةً، لتصب كامل تركيزها على قماش ردائي، وكانت بين الفينة والآخرى، توشوش لي بالإبتعاد عن منتصف البرميل؛ لئلا يحترق، لأنّه الوحيد الذي لدي.

كانوا هم بدورهم هادئين لدرجة لا تسمع سوى كيف تتأجج النيران وتطقطق، مُرسلةً بلهيبها عشرات الأشكال من الأدخنة التي ليس لها أي لون مُحدد. وكانوا مقوسين ظهورهم بطريقةٍ مُقلقة، بلا حركةٍ أو صوت. فجأةً قال أحدهم بتهكمٍ وسخرية:

- من منكم يشعر بالشبع أيّها السادة العظام؟

قال الثاني:

- لا أحد

قال الثالث:

- يا إلهيّ! "الشبع" لقد نسيت هذه الكلمة!!

أما الرابع ظلَّ يدنق ويحنى برأسه مع كتفيه، ثم نظر لي وبقى يرمقني ويشد بعسرٍ قبضة يده، لكنّي أبعدت ناظري عنه، وقلت لهم بنبرةٍ جديّةٍ وصارمة، لكن يشوبها بعض التخبط:

- لدي صحونٌ فارغة.. ألا يكفي ذلك ليجمعنا نحن المشردون؟

ما هي إلا لحظات صمتٍ، وضجَّ المكان بالضحكات العالية والقهقهات التي تتبعها الأعين بالدموع، من غير أن يسيطروا على سيولتها الفياضة. وأربتوا على كتفي مُمتنين على هذه النكتة، وعدوها من النكات الباهضة الثمن، والتي يجب أن يدفعوا عليها مقابلًا من المال. كُنت مصدومًا ومتوترًا، لكن بعد ثوانٍ، أطمأنيت وشاركتهم إبتهاجهم المُروع، ورحبوا فيَّ، وأعطوني مكانة صديقٍ من أصدقائهم القدامى، وودعوني وداعًا مُحترمًا وظريفًا.

كان الشارع الذي أتمشى فيه موبوءٌ بالضجر، وقبل أن أكمله لأصل إلى المنزل، مدّ لصٌ كلتا يديه وأخذ الكيس الذي أشتريته من بين أصابعي وهرب بسرعةٍ ماكرة، كان نفسه الرجل الذي ظلّ يحدق فيَّ قبل قليل، تعرفت عليه من خلال الشق الذي يقبع في وسط قميصه الوسخ من جهة الخصر. بقيت أشاهده وهو يبتعد تدريجيًا عن مدى رؤيتي، مُتسائلًا بحق، من الذي يمكن أن نصنفنه بالضحية؟ من هو الذي يستحق هذا الكلمة بجدارة؟ أنا؟ هو؟ من؟

رجعت إلى المنزل خاوٍ من شيءٍ يشبعنا اليوم، خاوٍ من الإجابات نفسها، ثم رأيت من بعيد فتىً طويل وذو بُنية متينة، كان يدقّ الباب بغلاظة، تقربت منه وسألته عما يريده. فعرف لي عن نفسه بأنّه أبن عم مالك منزلنا، ثم حذرني وهو يضرب على صدري بقضبته التي تزينها الندوب، أن أقوم بدفع الإيجار في هذه اللّيلة حصرًا، وإلا سيقوم بطردنا أنا وأختي عند حلول الصباح.

دخلت وأغلقت الباب على مهل، وجدت أختي سارحةً في نومها، بحثت في كل جيوب الثياب التي لدينا، وقمت بنبش كل الرفوف، وفتشت جميع الغرفة بزواياها، حتى الأماكن التي أعلم بأنّها لا تحتوي شيئًا، ولم أجد إثر بحثي أيّة قطعةٍ من النقود كي أدفعها له، كعربونٍ لتأجيل الأمر بضع ليالٍ قِلال.

أتصلت على مدير عملي السابق الذي فصلني قبل حوالي شهرين لأنّني كُنت أحيانًا عندما أُنظف محلّه الخاص، أكون شارد الذهن، ومُنفلتٌ عن الواقع الخارجي. فلم يجب على إتصالي، إذ خطر لي حينها عندما أنتبهت على كُتبي المتناثرة في كل شبرٍ من غرفتي، أن أقوم ببيعها، عسى ولعل أن أدفع إيجار هذا الشهر فقط. فذهبت له، وطلبت منه أن يهملني مُدة أسبوعٍ ريّثما

أحصل على مبلغٍ من خلال بيعي للكتب، فسخر مني رافضًا الفكرة، مع تهديدي بالقتل إذا جئته بعد بطلب أن يؤخر ترحيلنا ولو لدقيقةٍ إضافيّةٍ آخرى.

****

بعد خمس ساعات أستيقظت أختي، فأعطيتها بقايا عشاء البارحة بعدما وضعت بداخله حبتين من الأسبرين لتتحسن بعض الشيء، لأنّها لا تنوي أخذه، لأيمانها بأن هذه الأقراص الصغيرة مؤامرة كبيرة، ستثبط مناعتنا وتلتهمها؛ كي يسهل قهر إرادة الشعوب، غير أنّها نست بأن هذه الشعوب لولا قابليتها الذاتيّة على أن تُستعمر لَما أُستعمرت، فلا يُولد المَستعمِر إلّا بجوٍ أجتماعيٍّ قابلٍ للأستعمار، فوجوده دليلٌ حاسمٌ على الجاهزيّة العامة للخضوع له.

بعد ذلك، قصصت عليها ما حدث بخصوص المنزل. وحزمنا ما نحتاجه، وأتفقنا على ترك بعض الأشياء غير مهمة. أما أنا، فأخذت معي كتبي، ولففت أختي بالدِثار، وخرجنا حينما دقّت الساعة فور وصول ميلها إلى الثانية عشر. كان الضوء يئن بين هذه الدرابين الضيقة، والظلام يغتصب السكون، وترى الخوف يسقط في القلوب، كما تخرج الصواريخ من رحم الطائرات. توقفنا عند جسرٍ مُحطم، المتعارف عليه بأسم "جسر الفضيلة"، وسمي بهذا الإسم، لأن مقاتلي الرئيس إسماعيل ماتوا فيه بسبب قنبلةٍ زرعوها أفراد الفصائل المعارضة قبل عامٍ ونصف.

كُنا نرتجف من البرد، ففكرت أن نلبث تحته، وفرشت لكلينا لحافًا على هذا الأسفلت المُنفلق والرطِب، وأخترناه بحرصٍ شديد، كونه الوحيد غير المُهترئ من باقي الألحفة التي نستخدمها في البيت، وجلسنا عليه لكي نستريح من مشقة هذه اللّيلة قليلًا. كنت أتصفح هذا الجسر وأطالع أعمدته وأتلمسها بشيءٍ من لهفة الإستكشاف التي تراود المتسائلون الشكّاكون، فقد غامرني بعد كل هذا التأمّل، حينما كان يغفو غبار أعمدة هذا الجسر فوق مسامات جلدي المُصفر، وإستشعاري له من الداخل، أحقًا يستحق أن يُسمى "جسر الفضيلة"؟ ولماذا؟ أيّ فضيلةٍ هذه التي تذكرنا بالموت والخراب فقط؟ أي فضيلةٍ قد تذكرنا بصرخات الأمهات الثكلى ووجوهنَّ العابسات، تلّك الوجوه المرمية كالقمامة على الرصيف، أي فضيلةٍ قد تشبه هذه الفضيلة؟ يا لبلاهتي، يا لحماقتي، لِما الأستغراب؟ ها هو الحيوان البشريّ، تجده وقتما تجد القبح يحتمي بنفسه وراء الكلمات العذبة، يا لهذا الكائن العبقريّ! يا لهُ من وغد.

صاحت أختي مريم:

"أشعر بأني سأموت من البرد، أخي، أخي سأموت.. سأ.."

أخذتها على جسدي وأحتضنها بعنفٍ، لتشعر ببعض الدفء، حتى غفيت بقربها على هذا الحال.

****

فززت على صوت حركة العربات بقربنا. قال أحدهم لصاحبه: "إنّهم مُقيمون جُدد، هيا نرحب بهم". فجاء وهو يكركب حقيبتي، لعلّه يحصل على شيءٍ ذو قيمة، فلم يجد سوى الكُتب. بقي يقلّبها ويبحث عن نقودٍ مُخبئة، فلم يلقى ما يرجو نيله:

- فتش ربما سنجد شيئًا هنا!

- وماذا نجد؟ ألا ترى أن هذه الحقيبة لا تحمل سوى هذه الكتب البائسة؟

لم يجدوا شيئًا، فبصقوا عليَّ وشتموني، ثم ذهبا بعيدًا عنّا.

كان لبطني أنينٌ خاص، يُنبأ عن جوعٍ لا يُحتمل، جوعٌ يحرض الغرائز على أن تعمل بكافة فعاليتها الوحشيّة. لكنّني، وبما تبقى لي من صبرٍ، تلافيتها، وقمت أرتب كُتبي على الأرض، فبينما كنت أُرصّها واحدة واحدة، شعرت بعيونهم تلاحقني كقطعان الذئاب، تتربص لفرصة تمزقني فيها. تداخلت أصواتهم بين همسات مستهزئة ونبرات تهديد خافتة.

اقترب أحد المارين فجأة، ويده ترتعش كما لو كانت تحمل سكينًا غير مرئية، وجسده يميل نحوي كوحش يحاصر فريسته. شتمني، لكنني تجاهلته، بعد ذلك، وفي حركة سريعة دفع كتفي بقوة. لكنني تجاهلته مرةً اخرى.

حاول آخر أن يلتقط كتابًا من الأرض ليُرمقه بعيدًا، كأنه يريد أن يُهينني عبر تمزيقه أمامي، وفي هذه اللحظة تحديدًا، صحت بينهم بعلو صوتي الذي يكاد يسمع في الأرجاء:

"ابتعدوا! لا تلمسوا كتبي!"

لكن صوتي بدا خافتًا وسط زئيرهم، وكأن الضعف يختلط بالخوف في داخلي، وكأنني أصرخ في وجه صحراء جرداء لا تُجيب سوى بفراغٍ بارد.

وقفوا لبعض اللحظات، يراقبونني بتلك النظرات التي لا تعرف الشفقة، ثم انسحبوا مبتعدين، تاركينني في برودة الموقف، بين كتبي المبعثرة، وألم الجوع الذي يستعر داخلي.

بعد ذلك، قلت بصوتٍ متكسر، شبه مسموع:

"كل كتابٍ مقابل عشرة دنانير فقط"

انحنيتُ على الأرض أجمع الكُتب من جديد، وضعتُها أمامي واحدة تلو الأخرى، مرّ رجل، توقف لحظة، ثم تابع سيره. اقترب شابان، نظر أحدهما إلى الكُتب، ركل أحدها بحذائه، ثم ضحك.

لم أتكلم.. أعدتُ ترتيب الكتاب الذي سقط، ومسحت عنه الغبار بكفٍ مرتجفة، ثم وقفتُ للحظة، رفعت رأسي نحو الوجوه المارّة، حاولتُ أن أقول شيئًا، لكن الكلمات علقت في حلقي.

مرّت امرأة، نظرت إليّ، ثم إلى الكُتب، ثم أشاحت بوجهها. اقترب طفل صغير، مدّ يده نحو أحد الكُتب، سحبه أبوه بقوة وقال:

"اتركه، هذه أشياء لا تُؤكل."

عدتُ للجلوس.. وضعت يدي على بطني، ثم نظرت إلى كُتبي. مرّت ساعتين ولم يشترِ أحد، فأخترت أن أضع عرضًا مغرٍ، يُمكنه أن يلّفت إنتباههم، فصحت:

"كل ثلاث كُتبٍ مقابل عشرة دنانيرٍ فقط"

ومرّت ساعتين آخروات، ولم أبع شيئًا، ثم لمحت عينا أختي وهي تلمع لرؤية تلّك القطع الصغيرة من الرغيف، المصفوف عند الدكان الذي يجاورنا. كانت تتلمس بطنها بين كل ثمان دقائق تقريبًا، مصدرةً آنينها الذي آل أن يكون غولًا ضخمًا يُمزق بمخالبه أشلائها ويمتص سوائل جسدها المُتبقيّة، هذه هي الوسيلة الوحيدة لمقايضتها عمرًا أطول.

حينها قررت أن أعيد ترتيب حساباتي، وأعرض لهم عرضًا من المستحيل ألَّا يثيرهم لكي يقتنوا بعض الكُتب، وقفت ورفعت ذراعيَّ وصحت أعلى مما سبق:

"كل خمسة عشرة كتابٍ مقابل عشرة دنانيرٍ فقط"

وبقيت أصيح بشكلٍ متتالٍ، لكن لا شيء.. بدت تحزم الشمس أغراضها لتفرّ من دوامها الروتينيّ، حيث كان الجوع في لحظتها، أكثر الحقائق بداهةً ووضوح، فلم يكفّ عن حفر بطوننا، ولم يضجر من الإلتفاف حولها. قلت لنفسي، بأن عليَّ أن أفكر بشكلٍ مغايرٍ هذه المرة، وأضفي عرضًا مُختلفًا، فصحت بأعلى ما تستطيعه أوتار صوتي المُتهافتة:

"كل عشرون كتابٍ مقابل رغيف خبزٍ فقط"..

لم يحدث هذا تغييرًا.. كانوا يمرّون من بيننا، كأنّنا غير مرئيين، يدوسونا كما الحشرات، وليس أيّ حشراتٍ، بل من النوع الذي لا يلّدغ.

أخذت الشمس تلّهث خائفةً ومشمئزةً مما يحدث أمامها، ليتناوب عنها القمر بضعة ساعات. كان الزمان اللا متناهيّ مسجونٌ عند ميل التاسعة -على ما أظن- فقلّ الزحام، وبُسط على الأجواء شيءٌ من الحُزن، كانت العوائل الأستقراطيّة، تخرج للنزهة بعرباتها الفخمة، حيث تجد بنحو كل ثلثي ساعة، عربةً آخرى تمر في هذه الشوارع المُعتقة بالكمد.

في إحدى المرات، مرت بقربنا عربةٌ سوداء، مُرصعةٌ بلونٍ ذهبيّ، ومُغطاةٌ من الخارج بحريرٍ سميك، كان يعلّو فيها صوت جدالٍ وتوبيخ حادٍ بين أبنٍ وأمه العجوز، فرمى من نافذتها صندوقًا أصفر اللّون، يحتوي على أنواعٍ مُختلفة من شرائح اللّحم والخبز الأبيض، ونوعين من العصائر الباردة، كنت أسمعه يقول لها: "لماذا تأخذين معكِ الطعام عندما يُقدم لنا في الحفلات يا أمي؟ ألم تتعلّمي إنّنا أصبحنا من النُبلاء، والنُبلاء لا يفعلون ذلك!".

حملته وأخذت به لأختي مريم، كانت مُتفاجئةً ومرتابةً أيضًا، لأنّها لا تريد أن يكون هذا مجرد حُلمٍ آخر، لكن كيف لها أن تُكذب رائحة اللّحم الطازج، وبريق الخُبز اللّامع الذي تراه مُتلألأ أمام عينيها الخاويتين؟ إنّه أكثر حقيقيةً من أي شيءٍ عرفته في حياتها ووصفته بالحقيقي.

أكلنا هذه الوليمة غير المُتفق عليها بشراهةٍ عارمة، من دون أن نُفكر ولو لأجزاءٍ من الثانية -في لحظة الأكل نفسها- أن نُدخر بعضه للغد. إن الجوع اللّحظي يقتل الزمانيّة، ويُوقع هيمنة الماضي والمستقبل على الذات. وهذه صورةٌ بسيطة، تجسد معنى أن تكون حيوانًا، محكومًا بالشهوة الضروريّة، ومُقيد بها. نعم، يمكن القول، إنّ الحيوانات أكثر إتزانًا وأقل تخطبًا، لأنّها تعيش على أثر لحظتها بكامل مقوماتها النفسيّة، وإن كانت نفوسها أقل تعقيدًا منّا.

بعد هذه التخمة المُفرطة، نُمنا بإرتياحٍ لم يخطر على بالنا بالمرّة. شعرنا أن كل شيء يبدو بخير، وإن العالم ليس ظلاميًا كما كُنا نظن قبل ساعاتٍ قليلة. آهٍ.. يا لهذا التنازل السافل! إنّها لخسارةٌ حقًا، أن نعيش وفق هذا التواطئ الغريزيّ.

(البارت التاسع)

بزغت شمس الصباح مُتأفأةً ومكسورةً، كان يظهر عليها بأنّها لم تمسح دموع الأمس جيدًا. وعلى حين غرةٍ، وجدت قدماي وذراعيَّ تتجهز للبيع ثانيةً، كُنت أُردد كرةً، آخر عبارةٍ قلّتها: "كل عشرون كتابٍ مُقابل رغيف خبزٍ فقط". كأنّها بشكلٍ ما، السبب في حصولنا على وليمة البارحة. وبقيت أكررها وأكررها، لكن لا شيء سوى المارة الذين لا يلاحظوننا من الأساس. فتحت كتابًا من إحدى الكُتب التي لم أكملها مؤخرًا، وبدأت أنفرد بالقراءة وأنغمس في طيات أفكاره.

بعد وقتٍ قصير، جاءت دورياتٍ مُكثفة، وتوقّفت عند ناحيتي، فنزلوا منها ستة رجال مُلثمون، واسعيّ الكتف، طِوال، يمتلكون أبدانًا معدنيّة. أخذوا الكتاب من بين يديَّ، وأزرقوا جسدي بالعصا، وجرجروني إلى عرباتهم، بتهمة أنّني كُنت أبث أفكارًا سامة ببيعي لمثل هكذا كُتب، كونها مُحرمة وغير مرخص التعامل فيها، لأنّها تُهدد الأمن القوميّ للدولة.

كانت أختي تصرخ "أتركوا أخي، بالله عليكم، أتركوه، لم يفعل شيئًا" وتحشر نفسها وسطهم مندفعةً بجموح لتسحبني إليّها، لكنَّ أحدهم تصدى لها بكفّه العريض وأسقطها أرضًا.

شدّوني إلى الخلف، قيّدوا يديّ، دفعوني إلى داخل العربة، أُغلق الباب بقوة، وارتطمت رأسي بالجدار الحديدي. تحركت العربة بسرعة، وتمايل جسدي بين الجوانب، وكل ارتجاجٍ فيها يزيد ألم الضربات.

وصلنا إلى مبنى رمادي، ترجلوا بسرعة، سحبوني من ذراعيّ، قادوني عبر ممرات ضيقة، فتحوا بابًا حديديًا، دفعوني للداخل، وأُغلق الباب خلفي بصوتٍ جاف.

حجزوني يومين في زنزانةٍ مع أشخاصٍ غريبو الحال، كانوا قد أقترفوا أنواعًا من الجرائم، تتباين فيما بينها من حيثياتٍ كثيرة. كان على يساري رجل غدا لي أنّه لم يُصارع الثلاثين بعد، أصلّع الشعر، مُلتحٍ وذو قسماتٍ كئيبة، يقال إنه قتل أخيّه بسبب حبّه لزوجته وطمعًا في مجامعتها. أما ذاك الذي كان يجلس بقربه حانيًا رأسه، لا يختلف عنه في هيئته الجامدة، لكنّه كان أشعث الشعر وأكثفه بياضًا، مما يدل على أنه في الخمسين من عمره. سمعت من أحد الحُراس، إنّه أتى بطفلةٍ حتى ماتت، لأنّه كان يظنّها مغرمةٌ به. وكان بينهما رجلٌ هزيل البُنية، محياه مائلٌ للبنفسجيّة، يهمهم وحده ويتنهد في بعض الأحيان:

"لم أقتلها، لم أقتلها"...

يُشاع إنّه رمى زوجته من فوق سطح المنزل، بعدما تعذرت أن تقدم له قدحًا من الماء، لأنّها كانت تشعر بالتعب. وعلى يميني، رجلٌ يبدو إنه شارف الدخول في سن الأربعين، كان ودودًا معي، مُذ جئت هنا، مُبتسم الوجه، قرير العينين، كان يُحاول أن يبيّن لي طريق الطمأنينة، ويُهديني إلى الإقتراب من الله، من خلال حفظ بعض آيات القرآن وتلاوتها عليَّ.

سمعت من أحاديثهم صدفةً، إنّ إبنه الوحيد ذات مرة كان يجهش باكيًا ويتأوه جوعًا، حتى قرر في ليلةٍ من اللّيالي، أن يُنهي حياته بوضع سكينًا في أحشاء معدته. وعندما نفذت رائحة جثته إلى البيت المجاور لهم، أشتكى جيرانه وأخبر الشرطة بالأمر، ثم أكتشفوا مقتله، وزُج على إثر ذلك في السجن. فلم يكف طوال اللّيلين التي قضيتهما معه، عن تبرير جريمته لي.

وضح في إحدى محاولاته الرعناء، إنّه قام بذلك ليخلّص إبنه من المعاناة، ويعد هذه فضيلةٌ بحد ذاتها. كان يرتجف عندما يغطّ في نومه، ونسمع مع إرتجافاته يُردد كلماتٍ مُتقاطعة، مزمجرًا:

"إنّه بريئٌ يا إلهي، بريئٌ لدرجة من الخطيئة أن يُولد"..

كانوا جميعهم تربطهم إلفةٌ غير أعتياديّة، أحسّ بهذا من إنسداح أجسادهم جنب بعضها، كأنّه لا يرادوها أيّ إندفاعٍ غريزيّ، بأن خطرًا قد يطرأ لها، رغم أنّهم مصنّفون قانونيًا بالقتلة.

لكن الغريب والأشدّ قلقًا، كيف تجتمع كل هذه الجرائم بمختلف أسبابها ومبرراتها في ثلاث مترٍ ونصف فقط؟ أي عدالةٍ في ذلك؟ وكيف سأنظر لنفسي وأنا مُحاط بهؤلاء الذي لا أدري ما هم..

في أول عشرون دقيقة لي في السجن، سألني أحد الرجال الذين لم أسمع عنهم شيء:

- ما قصتك؟ أحكِ لنا، هيا..

- ماذا تقصد بقصتي؟

- أيّها الأبله! أستعجل، قلّ لي من قتلت وكيف قمت بذلك؟

- لم أقتل أحد

بدا مستغربًا، ثم قال بلهجةٍ إعتراضيّة:

- إذن، ما هي جريمتك؟

- بيع الكتب

سادت ضحكته محل الهدوء، مستوطنةً هذه الزنزانة التي تشبه المشارح المهجورة، ضحكته التي تستفيض بشيءٍ من الخفّة والحيويّة، ثم أردف مُستهزئًا بي:

- وكم كتاب بعت يا أيّها الفيلسوف الغبي لتستحق الجلوس مع رجالٍ أجلاء الشأن مثلنا؟

- لم أبع أي كتاب

أخذ يسخر مني، من الصباح إلى المساء، حتى جيئ اليوم الثاني مُتثائبًا من شدة سأمه مما يحصل لنا، كان يُنبه الآخرون بهزءٍ

"هه، إنّه يبيع الكُتب!"

لكن لا ردَّ لهم على سخافاته، لأنّهم مشغولون، وضائعون في ذواتهم التي تحيطها قضبان الذكريات الثخينة. وقبل ساعتين من خروجي السجن، أخذوني رجال يلبسون اللِّثام، بأمر من القضاء الأعلى، ليدخلوني بغرفةٍ لا تتعدى المترين. أجلسوني فيها، ثم بدأوا يضربوني بسوطٍ غليظ، كُدت أموت من أفراطهم الوحشيّ بعقابي، لكنَّ بعد ملاحظتهم بأن فقدان وعيي قد قُرب موعده، عقدوا معي عقدًا، بأن أترك بيع هذه الكُتب الفاسدة، وقبلت من غير أن أتذكر كيف فعلت ذلك، ثم أكملوا ضربي، إلى أن أضعت كيفيّة الإتصال مع الواقع.

ورغم ذلك، لا أدري كيف، لكنّي كنت أرى شيئًا يشبه الطيف الخاطف عند أول لحظات الإستيقاظ المُفاجئة، يُلمح لذهني، بأن هُناك شخصان قاما بحملي بعد إنتهاء جزائي من ربقة السوط، وبيد أنّهما كانا مستائان جدًّا، كوني لم أقاوم لفترةٍ أطول من المرجو منّها، بسبب هزالة بدني، ونحافة عظامي وضعفها.

أتذكر قول أحدهما "إنّه غير مُسلٍ، يا له من جرذٍ مُمل!" ظلّا يجراني زحفًا؛ لأستيقظ يومئذٍ، عند مزبلةٍ واسعة، على رائحة إحتراق بعض النفايات المقذوفة بمسافةٍ قليلةٍ عني. كأن ما حدث معي، كابوسٌ شنيع، ولصدقت بأنّه كذلك لولا الدماء المُتيسبة، والإنتفاخات الزرقاء التي تعتري هذا الجسد الذائب في الوجع. وهذا الصداع الذي يُثقل الرؤية، ويجعلها عبئًا لا يتكبد.

قطعت الطريق شمالًا، مُحاولًا الوصول إلى أقرب نقطةٍ دالةٍ، تشير لي أين أنا وأين يقع هذا المكان، لكنّني تصلّبت من قسوة البرد اللّعين. فقد مزّقت ضربات السوط المُتوالية ثيابي، ناهيك عن أسلوبهم الشائن في جرجرة جسدي، الذي قد أخذ حصةً لا بأس بها في تمزيقه أيضًا. وهذه التجربة التي عشتها معهم، جعلتني أضعهم بلا تراجع، بمرتبةٍ أقل من الشيء، نعم، وهل كُنتم تنتظرون مني أن أقول بدل ذلك، "أضعهم بمرتبة الحيوان" مثلًا؟

آهٍ.. يا لكم من مُتفائلون! إنّهم لا يستحقوا أن يكونوا شيء، أي شيء. مهلًا... مع.. مع من أتكلم أنا؟ ومن هم هؤلاء.. هؤلاء الذي حدثتهم للتو بضمير الجمع؟ لا أعلم، فلولا هذه الجدالات الباطنيّة بما تحمل من أصواتٍ تعِسة، بالإضافة إلى إستحضاريّ شعور لسعات السّوط الحارقة على ظهري، كيف سأدفئ نفسي؟ نعم بالنسبة إليّكم، كان الأجدر أن أستحضر ذُكرى دافئة، لكن ما هذا النوع من الذكرى؟ أهو موجود بالفعل؟ أشكّ في ذلك.

على أيّة حال، الأولى لي الآن أن أجد أيّ غطاءٍ ألفُ به ولو ثُلث جسدي العاري، فلسوء الحظ، لا يوجد عدا هذه الأرض الفسيحة التي تحيط بي، وهذه العربات المُتهشمة مثل رؤوس الأبرياء الذين أُلصقوا بهم تهمة الخيانة، وبعض البطاريات التالفة، وأشياء طويلة تشبه الأسلاك المعدنيّة. كانت اللّحظات التي قطعتها في هذه الأرض، لحظاتٌ حُبلى بالخفقان، يقبع في جوهرها فراغٌ أبديّ، وألمٌ لا مناص من أجتيازه. حينئذ، لمحت من بعيد، شخصًا لا أميّزه بسبب كثافة الضباب والحُبيبات الثلجيّة التي تتوارى إليَّ من كل الجهات، وحاولت أن أجعلّه يراني من خلال بعض الصيحات التي تليها حركاتٌ عشوائيّة مما تبقى لي من إرادةٍ جسيمة. لكن، وبعد كل هذه المحاولات الغريزيّة، التي تنضح عن أملٍ بشيء ما خفيّ، أقتربت منّه بمسافةٍ تُهينئني بالتعرف على ملامحه، لكنّني سقطت مغميًّا بلا حولٍ ولا قوة.

(البارت العاشر)

كانت تتراوح بينهم كنسمةٍ ضائعةٍ في جوٍّ عاصف، باحثةً عن أخيّها محمد في كل الشوارع التي أستطاعت أن تعينها ساقيها المُرتجفتين على إيصالها لها، سائلةً أصحاب الدكاكين، والعابرين منهم، هؤلاء الذين قد قرروا أن يحرموها من نظرات الأشمئزاز والقرف، كان يستعزي عليهم أن يشعروها بوجودها، ولو بأي طريقةٍ كانت، كأنّهم حكموا عليها بألَّا توجد. فقد بدت تشعر معهم بيأسٍ هائل، يأسٍ قد غمر قلبها وبدا يسري عبر أوعيتها الدمويّة ليستحل كافة جسدها. ولذا، قررت العودة إلى أول مكانٍ كانت به، حيث المنطقة التي إلقي القبض عليه. فعندما وصلت، تربّعت على هذه الرصيف حائرةً بزمانها، وتسأل نفسها ماذا ستفعل، أتبقى تبصّ النّاس على أملٍ لنيل إنتباهم؟ أم تجوب باقي الأماكن التي لم تسعفها قواها الجسديّة على الوصول إليها.

وبينما كانت واقفةً هناك، لاحظت حركتهم المستمرة، أرجل الناس تتنقل بسرعة، أطفال من بوابة المدرسة يركضون ويصرخون بابتسامات عريضة، وبائع الخردة العجوز عند زاوية السوق يحرك صناديقه ويهتف على المارين، وكل هذا جعلها تتأرجح بين شعور بالضياع وبين رغبة مفاجئة في اللحاق بالزحام لتختفي فيه، وكأن الحركة من حولها تمنحها إجابةً على حيرتها، لكنها في الوقت نفسه تزيدها ضياعًا.

بعد نصف ساعة تقريبًا من حيرتها الثقيلة، جاءت عربة مُسرعة، ثم توقّفت مصدرةً صوت تزحلقٍ خفيف. كانت محملةً برجلاين، يرتديان جاكيتًا يغطيهما بالكامل، وقبعاتٍ سوداء مُنحية بدرجةٍ يُصعب أن تلمح شاربيهما.

كانا يمشيان بخطيٍ بطيئة، أحدهم يحمل خزانٍ بلاستيكيّ صغير، والآخر يقبض بيده القليل من أعواد الكبريت، ركضت نحوهم مُتسائلةً بفجاعةٍ ومن غير صبر:

- أين أخذتوا أخي، أرجوكم.. أرجعوه لي، ليس لدي أحد سواه

لم يكلّمها، ثم لحّت عليه أكثر، فأجابها:

- أبتعدي عنّي، هذا من مصلحتك

- أرجوك.. أريد منك أن تأخذني إلى أخي، لا أريد منك سوى ذلك، أرجوك..

أجابها بكل برود:

- لا تتعبي نفسكِ في البحث، لن تجديه بعد

ثم بعد كل المحاولات التي باتت بالفشل، أسقطت ركبتيها على الأرض واتكأت على أقدام الرجل الآخر وهي تُقبّلهما، كان رغم ذلك، يشحذ بالعود، بعدما أغرق الآخر جميع الكُتب بالنّفط:

- أرجوك يا سيدي، سيدي الفاضل، أخذني إلى أخي، أرجوك، أتوسل إليّك، ليس لدي غيره في هذه الدنيا، أرجوك..

ألقى عُود الكبريت بهداوةٍ مُطلقة، كأنّه مارس فعلته هذه الآلاف المرات. إذ بأجزاءٍ من الثانية، أنفجرت الأرض بنيرانٍ غاضبة، أرتفع لهيبها نائحًا إلى أعلى غيوم السماء، هذه الغيوم التي تبدو مُخنقةً دموعها إلى أقرب حزن.

حينئذ، أنتبه النّاس الذين كانوا مشغولين عنّها، وركضوا بإتجاه النار، كذئابٍ جائعةٍ خلف فريستها، وأخذوا يتدفئون بزهزقةٍ وفرحٍ شديد العرمة، ويشكروا جلالة الرئيس إسماعيل على نعمته إليّهم ويتمنوا أن يُديم لهم فضلّه الكريم دومًا. أما هذان الرجلان ذهبا، وظلّت مريم وحيدةً، تنظر إلى عربتهم وهي تبتعد، بأعينٍ قريعةٍ وبائسة.

خطر لها أن تذهب إلى زوجها علي، لعلّه يقدم لها العون الذي تحتاجه في وضعها الحاليّ، كان يبعد عنها مسافة ساعتين مشيًا على الأقدام، فشرّعت بالمشيّ وسط هذه العواصف الثلجيّة التي لا ترى بسببها من الطريق شيئًا، حتى وصلت إلى بيته.

دقّت الباب مرتين، ولم يفتحوا لها، فعندما أرادت أن تدقه للمرة الثالثة، تحرك مفتاح القفل وأصدر صوته المعتاد حينما تُفتح الأبواب، خرجت لها أمراةٌ حسّنة، يبدو من على ملامحها الترف:

- عفوًا، الله يُعطيكِ، ليس لدينا مال

كانت تغلّق الباب حتى قالت لها:

- أنتظري، أريد أن أكلّم علي، هل هو موجود؟

- من أنت؟ من أين تعرفين زوجي؟

خرج هو بنفسه، وطلب من زوجته الدخول، وبعدما أغلق الباب، غضب لتواجدها قائلًا:

- لماذا آتيتِ؟ ماذا تريدين!

- لقد أخذوا أخي، وليس لدي مكان أذهب إليّه وأنا أريد منك أن تسا...

- أصمتِ أيّها القذرة، لا تأتي بعد وإلّا سوف أقتلك!

- أرجوك، أنا جائعة وأشعر بالبرد، فقط هذه اللّيلة ولن آتيّك بعد

ثم أردفت مكملةً كلامها بعدما وجدته يُسرع في أغلاق الباب:

- ساعدني على الأقل في إيجاد أخ...

أغلقه قبل أن تكمل حديثها معه، ثم بقت واقفة، لتسقط مُسندةً رأسها على حواف باب منزله باكيةً بحرقة. كان الشيء الإيجابي في ذهابها إليّه، إنّها بكّت، هذه الدموع رغم ثقلها، قد أدفئتها قليلًا. وبعدم إستغرابٍ، وكعادته، جاء اللّيل مُتعجلًا، ليُوقظ بعواءه الآلامًا مُتنوعة في لُب عظام من لا يمتلكون سقفًا، أي سقف، وإن كان مصنوعًا من خشبٍ أو سعف، هؤلاء الفقراء الذين ليس لديهم ما يربطهم بالنّاس سوى الذكريات، تلّك الذكريات التي يشكّون في أغلب الأحيان بحقيقة وجودها، رغم تمسكهم مُلح بها.

أخذت تمشي بترنحٍ بين هذا الضباب الكاسح، والثلوج التي تُغطي كل شيء، وهي تصرخ بأسم أخيّها، "محمد.... محمد..." وتنوح له كما تنوح الأمهات عند ضياع أولادها.

****

في لحظةٍ ما، فزّزت على هذا الكابوس المُريع، كنت لا أتذكر منّه سوى أنّ أختي كانت تصرخ بأسمي مُناديةً إيّاي "محمد... محمد..."، تصرخخ مُرتجفةً في هذا البرد الذي لا يرحم من لا مكان يأوي إليّه. ثم انتبهت إنّني مُستلّقٍ على سريرٍ قديم في غرفةٍ مُهدمة ومهجورة، كان جدارها مُغطى بطبقاتٍ من الأقشمة المهترئة، وزواياها المثقوبة قد كُسيت ببقايا ملابسٍ وسخة، تلّك التي تستخدم عادةً في المسح. وظهري ملفوفٌ بالقماش، يبدو من خلفه بأن جروحي قد تم تعقيمها وتنظيفها، لكن أين أنا؟ كيف وصلت إلى هذه الغرفة؟

سمعت صوتًا في الخارج، مشيت بإتجاهة بخطواتٍ خافتة، ويدايَّ على الحائط لأسند نفسي واقفًا دون أن أقع، ثم مددت رأسي من الباب؛ لأجد رجلًا هرمًا، ذو شعرٍ أبيض كثيف، كانت خصلاته تلّعب فوق ظهره، كأنّها تُسامر نسمات الشتاء وتتدلل له في هذا الظلام المُلتحف بالصمت، لكي يُخفّف من قساوة برودته بضع درجات.

كان مُشعلًا في مساحةٍ صغيرة، بعض النّار الذي يهيم دخانها مُرتفعًا في الجو بتراقصٍ رشيق، جالسًا بقربها بكل إطراقٍ وسكون. تقربت منّه لأتعرف على وجهة الذي يتخفى وراء أكتافه المُتحدبة، نطق بصوتٍ حميميّ، وهو يُحرك بقايا الحطب المُلتهب:

- "قلّت لك يا بُني، بأنّنا سنلتقي في يومٍ ما"

تصلّبت كأن الأرض طوقتني وطرقت قدمي بمساميرٍ عريضة، يا للعجب، إنّه صوتٌ مألوف! أمن حسن حظي بإنّه هو؟ العم... العم عيسى؟

- أهلًا بك في عالميّ الجميل يا بُني، أتحب أن تشاركني الشاي؟

أجبته مُتلعثمًا ومنصدمًا:

- نعم يا عم، نعم أشكرك

- كيف حالك؟

- كيف تبدو حالتي لك؟

- سيئةً للغاية، لا لأنّك كُنت تعاني من جروحٍ قاتلة، نعم من الواضح أنّها ناجمةٌ من ضربات سوط، لكن السبب الأساسي حقًا، لأنّني حرمتك من هذا الأرتياح الأبديّ، ذلك الخواء النقيّ المُنعش، حيث تنتفي كل الضروريات، وتمضي خلف العدم

- أنا مُمتنٌ لك على هذا الذي تسميه بالحرمان.. فأنا أعترف لك، بأني لا أستطيع الموت الآن

- أعلم بذلك، لك أختٌ تريد إنقاذها

- كيف علمت بذلك؟

- كُنت تهذي أشياء كثيرة وأنت تحلم، ومن ضمنها هذه التي تخصّ أختك

- أجل، لقد تركت أختي في المدينة، وأريد أن أرجع لكي أنقذها، ثم نبتعد عن هذه المكان قدر المستطاع. إن هذه المدينة يا عم، تسير نحو التشوّه، والإنحطاط الأخلاقيّ، حيث لا يشبعها سوى رائحة الذّل والخِسة

- ولماذا تظنني غادرتها؟ نعم.. ليس هُناك ما سيصلحها، وكل المحاولات الأصلاحيّة، ضربٌ من الجنون، لذلك توقفت عن محادثتهم والتأثير فيهم، وقطنت هنا..

سكتت لدقائق ثم نويت الوقوف، فقلّت له في لحظة محاولتي للأستقامة:

- شكرًا يا عم ينبغي عليَّ أن أذهب، فأختي وحدها وأنا قلقٌ عليّها.

حاولت أن أقف بإتزانٍ، لكنني لم أستطع، بسبب الوجع الذي يضطلع جسدي ويجعل حمله شاقٌ ومتعذر، كأنّه أزداد على وزنه، مائة كيلو غرامٍ جديدة. قال لي:

- أرح جسدك هذه اللّيلة، فلو ذهبت حالًا، ستموت وأنت لم تقطع نصف المسافة للوصول إليّها

شعرت بإمتعاضٍ مُرهق، ويكسو بسبب عجزي ملامحٌ حزينة، قلّت له لا رغبةً بالحديث بلّ لإخفاء هذا العجز الكريه:

- أتذكر آخر مرةٍ قلت لي بإنّك ستذهب إلى أراضٍ خضراء، ولكن يا عم، عذرًا، فهل تعتقد أن هذه الأرضي خضراء؟

- كانت هذه التي تستخف بها، عبارة عن مزارعٍ واسعة، فيها ما تشتهي النّفس من الفواكه والخضروات، وبعض النخيل الطويلة، وأنواع مُختلفة من الورود. لكنّهم، بجشعهم وإستهلاكهم المُفرط، حولوها بكل بساطة إلى فوضى كما ترى الآن، مثلما يفعلون مع أي شيءٍ آخر.

- من هم هؤلاء؟ أتعرفهم؟

- لا أدري، يطلقون على أنفسهم لفظة إنسان

أخذنا آخر تعليّقٍ له كمقدمةٍ لنسترسل ونغوص في طبيعتنا وخفاياها وأكثر عناصرها النفسيّة غموضًا. حتى أنفتحت شهيّة الحوار الجدليّ في موضوعاتٍ عدّة؛ لنقفز من قضيّةٍ لآخرى. لكنّني، لم أستطع أن أتغافل عن كونه أصبح أشد بؤسًا من قبل، وأكثر تشاؤميًا مما عهدته، لكنّه ومع ذلك، كان كريمًا معي وحنوّن. فقد دلّني صباحًا -في اليوم التالي- على الطريق الذي سيوصلني إلى المدينة. وقبل أن أذهب، صافحني قائلًا لي بنبرةٍ جديّة وشجنة: "إن زرتني ذات يوم، ووجدتني ميتًا، أحفر لي قبرًا عند زوايا غرفتي، وأدفني هُنا. فلا أريد أن يعبثوا بجثّتي ويدفنوني في مقابرهم الكئيبة، ثم يتلو عليَّ بعض الترهات، هذه وصيتي لك، أحفظها". ثم أضاف على كلامه بعدما أطبق جفونه وسكت بضع ثواني: "هذه المزبلة التي أصبحت خلفك، أطهر من ضمائرهم، وأنا سعيدٌ جدًا لو تعفّنت فيها، على أن أرقد في كهوفهم المريضة تلّك".

وقفت أتأمل حاله، ثُم شكرّته وأستدرت عنّه مجددًا وذهبت.

****

بعد أربعة ساعات تقريبًا، وصلت إلى المدينة، أردت أن أختصر الوقت بركوب أي أنواعٍ من الحافلات، لكنّني لم أكن أملك ثمن ركوب أردئها، فأضطررت أن أكمل الطريق مشيًا. كانت أغلب الشوارع مُتهالكة، مثل أفراحهم، وبيوتهم مُنطفئة ومُنحنية، ومشيتهم بين بعضهم تبعث على النفور، عدا تلّك العبارات البطوليّة التي تمجد الرئيس إسماعيل، المنحوتة فوق الأعمدة وواجهات المحلات التجاريّة والمنسوجة في أصواتهم، تلّك الأصوات الضائعة في هذا المدى المفتوح للقلق والأسى، كانت هذه العبارات، هي أكثر الأشياء ترتيبًا وترميمًا، بلّ أكثرها إشراقًا في هذا العالم، رغم أن أشراقها تستمده من أحّلك أوجاعهم عمقًا. يا للمُفارقة!

لم أنتبه كم من الوقت استغرقتُ في المشي، ولا كم من الأزقّة سلكتُها، فقد كانت قدماي تجرّني بينما رأسي غارقٌ في دوامة صورٍ ومشاهد تتداخل كأنها حلمٌ باهت. وما إن هدأ صخب الشوارع في أذنيّ، حتى وجدتني أتأمّل شيئًا آخر، شيئًا ظلّ يتردّد داخلي في صمتٍ ثقيل... نعم، أقولها بملئ فمي، أنا حزين للغاية، ولا أدري لماذا عندما أكون حزينًا أكون أكثر منطقيةً مما أنا في حالات الإبتهاج، أعتقد إن في القرارات التي تراودها توهجات الفرح، بلاهةٌ حيوانيّة في الغالب، وأغترابٌ للمعقول. إن

الحُزن ينفرد بكونه يعقّد الأشياء ويشابك أسبابها ويضفي عليها صفة التشكّل والتعقيد، مما يمكن أن نعزو ذلك، إلى النفحات الإنسانيّة الأصيلة، الناتجة من قوى العقل لا من قوى الشهوة. إذن، أن الحزينون، هؤلاء المنسيون من يومياتنا وكلماتنا، يعيشوا إنسانيتيهم ويستشعروها بإخلاص، بمعزلٍ عنّا جميعًا. يا لخيبتهم فينا! ويا لرضانا الرخيص بأنفسنا!

ومع هذه الحوارات المُلتهبة، قد تمكنت من إزاحة سطوة الوقت عن مداركي، ووجدت نفسي وصلت بالقرب من مقهىً يُدعى مقهى" كلكامش"، كانوا يجلّسون فيه الكثير من النّاس، ليشربوا الأركيلة، ولأكاد أقسم أن رائحة دخانها، تضيق صدري من بشاعتها، فلا أعلم ماذا يضعون فيها حقًا، كأنّها رائحة أفكارهم.

كان قبال المقهى، من جهة اليسار، رجلٌ كبير السن، يعمل كصباغٍ للأحذية، كان مُنغمسًا بتنظيف حذاء أحد هؤلاء الشّبان الأغنياء قبل صبغه، فعندما أعتراه الضجر، فقد صوابه ورفع قدمه وداس بها على أصابعه النحيلة، ورماه بالشتائم حد أن أغرقه بها، ورمى ثمن عمله بكل حقارةٍ ووضاعة، لكنّه لم يفعل له شيء سوى إنّه بادله الإبتسامة. فقد أثارتني إبتسامته، وشعرت من خلالها بالمغص. فتقربت منه وصار تحت رجليَّ، حتى قال لي كأنّه أعدّ ذلك لحين مجيئي:

- أعطيني حذائك، وسأجعله يضيء لك في اللّيل من شدة لمعانه

- شكرًا لك، أيمكنني أن أسألك سؤالًا؟

- أعطيني حذائك يا سيدي وأسال ما ترغب به

- لا أريد منك خدمة، سوى أن تجيبني

- أرجوك دعني ألمع لك حذائك، أرجوك!

شعرت بالضيّق وسألته بشكلٍ مباشر:

- لماذا أبتسمت له رغم إنّه أهانك؟

صمت قليلًا، ثم ضع يده على يدي وضغط عليها بغضبٍ ورمقني بعينيه المترهلتين على خده وقال:

- من أنت يا هذا لتحرمني من هذه الإبتسامة!

ركضت خائفًا من رده فعلّه وأنا أتعثر ساقطًا على الأرض، حتى أبتعدت عنه. بعد عدة خطوات، إلتفت، كان قد بدء يصيح مُجددًا، كما في أول مرةٍ ألتقيت به: "أعطيني حذائك، وسأجعله يضيء لك في اللّيل من شدة لمعانه"، حينها هبطت من سماء الذاكرة بعض الأيام على جسدي الهزيل، أيامٌ تعود إلى مرحلةٍ مُبكرة من حياتي، أيامٌ كُنت فيها أبتسم لمن يضربوني

وأشاركهم فرحتهم في هذه الأمسية الوحشيّة الخرقاء. وما إلَّا ثواني، وقمت بإحناء رأسي ببطء، محاولًا إقناع نفسي أن أتلافى ما جرى لي سابقًا.

آهٍ، لكن آهٍ لا أدري مِن من، بعض الأحيان أعتقد بأن أغلب أمراضنا النفسيّة، تتعلق فيما هو متعلّقٌ في الذاكرة، أي أنّ بوادر ظهور المرض نفسه، يأخذ مقوماته من ما هو محبوسٌ فيها، ويستمد قوة حضوره، من تلّك الأيام التي لا تغادر الذهن خصوصًا، أو التي تغادرها لدرجة النسيان والكمون، بسبب صعوبة حملها بإدراكٍ كامل، بمعنى أن فاقد الذاكرة، هو أصلّح نموذجًا للإنسان السعيد، رغم أن نسيان ما مضى، لا يعني بالمرّة أن تكون غير متأثرٍ بما نسيته، يشبه الأمر أنّك أدخلت لجسدك غازات سامة لا رائحة ولا طعم ولا لون لها، غازاتٌ لا يمكن إدراكها بالمحسوسات الإنسانية، لكنّها تترك أثارًا جسدية جسيمة بشكلٍ تدريجي في الأيام القادمة عند تفاعلها مع باقي مكونات الجسد وأعضاءه.

لذا، إن من السلوك والشعور ما يمكن أن نعزوه لما هو غير مستقرٍ في الوعي، لكن ذلك أهون الشرين فحسب. وإني لأخاف أن يأتي زمانٌ ونخترع فيه ميزانًا معنويًا نقيس من خلاله وزن محتويات النفس، إن هذا الإختراع سيقتلنا حتمًا، لإنّنا الآن قد وصلنا إلى أعلى مستويات السُمنة حسب تشخيصي السطحيّ لهم، فما بالنا حين يأتي زمن أختراعه؟ والذي أعتقد بأن حدوثه حلمٌ بعيد المنال والتحقيق.. لا.. لا جدوى من ذلك سوى أن نتقبل دمامتنا فقط، وبهذا، نعلن عن إبادتنا، لنسير مطبقين أقدامنا ومحدودبين، كالأخوة التوأم في ليلةٍ هادئةٍ نحو العدم.

آهٍ من كل هذا، فأنا الآن لا يمكنني أن أحجب نظري عن هذه المرأة التي من الواضح أنّها تقطن في سن الأربعين، جالسةٌ على بلاط أحد هذا الممر الجانبي التعيس، تتهامس فيما بيّنها، خمنت ذلك، من حركة شفاها. إنّ لإنخفاض رأسها إحساسٌ مثيرٌ للسخط، حيث إنّها لا ترفعه، مُتفرسةً قدميها، وبجمودٍ رتيبٍ تطيل فيهما النّظر.

أيضًا لاحظت إنّها كانت تلّبس نعلها في القدم اليسرى فقط، أما الثانية، فهي تخلوا منه. ولا أنسى كيف يصطبغ وجهها بحمرةٍ قانية ويمتزج بصفرةٍ شاحبة عندما يتقرّب أحدهم منّها، وكيف تحتضن نعالها الوحيد بكلتا يديها المتيبستين، كأنّه بالنسبة لها كل شيء ولا شيء. فما هذا الذي تعيشه بداخلها على وجه الدّقة؟ وما الذي يحدث لنا نحن أيضًا؟ وإلى أي جنونٍ مُقدمين؟

سلّكت في أحد هذه الشوارع الهامدة، وأصبحت تفصلني عن السوق الذي كُنّا فيه أنا وأختي، مسافةً قليلة. فأطلقت العنان إلى كل عضلات جسدي، لأركض بعشوائيّةٍ صاخبة، وأصل أسرع مما أنا عليه، باحثًا عنّها، بين الدكاكين والحانات والنّاس.

كانت خطواتي تتعثر بأكوام القاذورات، وأرتطم بظهور المارة الغافلين، فتتزحلق قدماي على حجارةٍ ملساء مُبتلّة، ثم أنهض من جديد باندفاعٍ أشدّ، أتنفّس بحرارةٍ تقطع صدري نصفين، يجلجل صدى أقدامي في الأزقة الضيقة، بينما تتطاير أنفاسي مع الدخان المتسلل من النيران التي يشعلوها بقرب محلاتهم، وأكاد أطيح بالعربات الصغيرة المندفعة في طريقي.

كان كل شيءٍ أمامي يتشوش، إلا صورتها، معلّقةً في رأسي كبرقٍ يخترقني. حتى لمحتها في إحدى الدرابين، قرب جسر الفضيلة، في نفس مكاننا السابق تقريبًا، مفتوحة العينين، ومُزرّقةٌ تمامًا.

كانت تبدو نائمة نومًا عميقًا بين أرجلهم، وهم يعبرون منّها كأنّهم لا يرونها من الأساس، هؤلاء المارّة الناتئون، متقلّصيّ الوجه والمتخرّصون. بقيت أهزّ بها بضع هزّات وأحرك جسدها المّنتفخ والمُتصلّب من شدّة البرد ورعونته، لكن لا إستجابة على ذلك، ولا أيّ شيءٍ يُفضي عن رمقٍ مُتبقٍ لها من روح الحياة لكي تدب فيها ثانيةً، بروحيّةٍ جديدةٍ تعيدها إلى هذا العالم.

أستسلمت لأمر خلاصها، ثم أحتضنتها وبكيت.. بلا إنتهاءٍ ولا رحمة.

الجزء الثاني - (البارت الأول)

لم أحلق ذقني منذ فترة طويلة، وربما هذا ما يجعل كل حركة موس الحلاقة تبدو غريبة عليّ هذه الليلة. جلست أمام المرآة، أنظر إلى وجهي النحيل، إلى عظام وجنتي البارزة، وكأن كل شعرة ذقن تحمل وزنًا من عمري وحيرتي. أمسكت بالموس بيدي التي ترتجف قليلًا، ليس خوفًا، بل من طول الغياب عن هذه العادة، ومن إحساسي بالغربة تجاه نفسي وأنا أفعل شيئًا بسيطًا كهذا.

بدأت الحركة ببطء، كل ضربة للموس على الجلد الرقيق تشبه همسًا خافتًا، أشعر وكأن ذقني تنحني طواعية تحت الشفرة. كل شعرة تُزال تجعل وجهي يبدو أخف، أكثر وضوحًا، كأنني أكتشف خريطة جسدي من جديد، عظامي النحيلة، خطوط وجهي الدقيقة، المساحات التي طالما أخفتها ظلال الشعر.

ابتسمت لنفسي قليلًا، بينما أدرك أنّه مهما كانت التعديلات صغيرة، فهي تمنحني شعورًا بالتحكم، ولو لحظة واحدة، في شيء يخصني وحدي. ومع كل ضربة موس، أشعر أنني أزيل شيئًا من الجمود الذي تراكم بداخلي، وأن وجهي، رغم نحافته، يبدأ بالظهور بوضوح، يعلن عن وجودي في هذه اللحظة، عني، أنا فقط.

أيضًا، رتبت غرفتي التي سلمني ياها، لكنه عادةً ما يرفض ذلك، صحته قائلًا:

- يا عم.. يا عم.. أين أنت؟

أجاب من بعيد:

- أستعمل مخيّلتك وستجدني..

أبتسمت، وقلت في نفسي "يا له من مجنون، كم أُحبّ مُزاحه". كان جالسًا على تلّك الصخرة، وينظر إلى الجهة المُقابلة من الغرفة، كانت الرياح عاتيةٌ، والغيوم تتسابق فيما بينها لتفرّ خلف أكتاف الشفق. إذ مُنذ أن سكنت معه، على مدار ثلاث السنين الماضية، وهو لم يفارقها. كان مغرمًا بالجلوس عليها، هذه الصخرة الرماديّة العملاقة، لا أعلم ما السبب الفعليّ الذي يدفعه لذلك، لكنّني أشعر بإنشراح صدره وهو يركبها، كأنه يمتطيها كما يمتطي الفارس ظهر فرسه. ولعلّه يظنّها فرسًا، من يدري؟

كان لا بُد لي ألَّا أتغافل عن كلّبه الهرم الذي يقبع جنّبه، ذلك المشاكس الوقح، يا له من كلّبٍ وخم! أكاد أقسم بأنّه، لا يستطيع أحد أن يُهدأ من روعته إلا وجود العم عيسى. كذلك، قد أستنتجت جيدًا، بعد العيش معه طوال هذه المدّة، أنّه هو الذي حماه كل هذه الفترة، وإلّا ما لهذا العجوز أن يبقى حيًّا كل هذه السنين في هذه المزبلة وحده؟ وهو لا يقدر على رفع عصاه إلَّا بعد شهيقٍ يُوشك أن يشقّ رئتيه، ويمزقها أربًا أربا.

كان يداعبه بأستمرار، ويُلّقي عليه بعض النّكت، سمعته ذات مرة يقول له وهو يحتضنّه، "يا عزيزي، أنت تحاورني أفضل منهم، أتعلم بذلك؟" وكان يرد عليه، بهز ذيله بطريقةٍ إحتفاليّةٍ عنيفة، ويُخرج لسانه الطويل ويحوم وهو يتقافز حوله. كان لهما من الأواصر الترابطيّة ما لم يحوزها أي إنسانٍ عرفته مع إنسانٍ آخر.

قلت له وهو يكلّم كلبه، وأصابعه تداعب فروه الأسود بينما يتحرك الكلب بحركة سريعة متأرجحة بين قدميه:

- هل سألت نفسك من قبل من أنا؟

هز الكلب رأسه برفق، وعيناه تتلألأ، لكنه ظل ساكنًا، كأنه يشاركنا الحديث:

- نعم، لزمنٍ طويل وأنا أتسائل، حتى أصبحت أرى هذا السؤال متمثلًا أمامي كجسدٍ متكامل تستطيع أن تصدق بوجوده

- وإلى ماذا توصلت؟

- لا شيء

رفع عينيّه، رامقًا السحاب وهي تغطّي الشمس بين حينٍ وآخر، ويداه تحركان بعفوية على ذراعي الكرسي الذي يجلس عليه، كأنهما يقتنصان الهواء:

- يا بُني لا تبدو مثل هؤلاء المساكين، جاثمًا على قدميك، وساعٍ لحل هذه المعضلة، سمها ما شئت "معضلة الأنا"، أو أي تسميةٍ آخرى تعجبك.

قاطعته على عجالة، وقد رفعت يدي لحظةً لوقفه:

- ماذا تقصد؟

ابتسم ابتسامة قصيرة، ثم مد كفه أمامه وأدار رأسه يمينًا ويسارًا، وكأن الكلام نفسه يجرّه عبر المكان:

- لقد أدركت الأمر، وبقيت أقول لنفسي دائمًا، "لا يهم من أنا، لا يهم"، ولأكون صادقًا معك بشيء، وكما نحن نتفق بأن كل الأشياء الغامضة لها رونقها وجاذبيتها، ما زلت إلى الآن مُعجبٌ بفهم هذه الأنا الخاصة بي، لكنني فضلت أن أنظر لها من بعيد، من آخر زاويةٍ في النفق، بلا أملٍ أو خيبة.

- ولماذا؟ ألا تشعر حيال قرارك بالضياع، كونك ترفض ذلك؟

تراجع خطوة إلى الخلف، وأمسك بذقنه كما لو كان يتأمل تفاصيله، ثم أجاب:

- عندما تجيب نفسك عن هذا السؤال بصيغةٍ ما، ستنصهر في تلك الإجابة ببطء، أن في داخلها العميق هدفًا معينًا. ولربما ستغدو أكثر من نصف حياتك تدور حول هذا الهدف فقط، بالتالي ستزودك الإجابة بنوعٍ من الأطمئنان الهادئ الذي يفضله الجميع، لكنني، ومن منطلق إرادتي، لا أريد حياةً كهذه، أريد العيش في كل أنا أصادفها، في كل الأهداف التي أمر بها، لأفهم من خلال العابرين مني، كانوا أحياءً أو أموات، هذا العالم، عالمنا الكبير.

شعرت بالحيرة، ثم تلمّس حيرتي بيده، مدّها ببطء على كتفي، وكأن الحسم الحركي يعزز الكلام:

- عندما تجيب نفسك مثلًا: "أنا كاتبٌ، أحب كتابة القصص، وأجيد التلاعب بالكلمات" سترى غالب مجريات الحياة بعدستك هذه فقط، ستربط الأدب في الزواج، في بناء الأسرة، في العمل، في نوعية العلاقات الإجتماعية، في أكثر مما تعتقد، أليس كذلك؟ وكيف لا؟ أن هذا ما يجعلني أنفر، أن في ذلك ما يعيقني ويشعرني بالضياع أكثر مما تظن. نعم، بالطبع ينتابني بحالتي الآنية التيّه بكامل قواه ويؤخزني عن قصد، لكنّني أخترته بنفسي. عكسهم، لذا، لست خاضعًا ولا مأسورًا لجنونه، ونوباته القاسية. إنهم لا يملكوا من الإرادة الحُرة ما يكفي لأن يرفضوا الشعور بالضياع أو حتى التفكير بالتخلي عنه، هو مُصممٌ للبقاء رغم أنفهم، فهمت الفرق؟

- أجل... ف.. فهمت

انحنى قليلًا، وكأنه يلتقط حبة تراب من الأرض ويرميها بعيدًا، قبل أن يواصل:

- ولهذا كنت أقول بأن المعاناة ليست بطبيعتها تشاؤمية، ليس من الشرط أن تكون كذلك، إن من يجعل المعاناة تصتبغ بالتشاؤم، هو كونها غير مُختارة. أنظر للنّاس، هل من فيهم قد أختار ما يعانيه بالفعل؟ أتعرف أحدهم؟ في الشوارع، الحانات، الأسواق، القصور الشاهقة، بين الصالات الملكيّة، وبين وسخ الأطباق التي ينظفها النادل جيدًا لكي يثني عليه سيده ببعض النظرات. أصادفت في حياتك شخصًا على الأقل؟

- صادفت

- من؟

- أنت!

أومأ برأسه، وعينيه تحتضن السماء للحظة قصيرة، ثم همس:

- أصمت! حتى أنا عبدٌ، عبدٌ للحرية، يا لها من معاناة!

كان كلامه بمثابة صعقةٍ مفاجئة، أيقظت فيَّ القبول لكل أصناف الحيرة، ومداعبتها بلطفٍ، دون المساس بها أو تحويلها إلى شيءٍ آخر، كان لزامًا علي بعد ذلك، أن أطلق على الحيرة إسم صديق، لا عدو. لكنّ الأمر الغريب، إنني لم أشعر بإزاه بأنه فردًا من الحيارى. كان صامدًا، مقاومًا، وله ثباتًا مُهيب، كيف ذلك؟

أعتقد بأن الفكرة ما أن تظهر للعيان حتى تتجلّى على هيئة سلوكٍ مفرد، فهي في عالمها الداخلي تتصارع بين عدّة إشكالٍ للسلوك، ما أن ينتهي الصراع بين هذه السلوكيات المتعددة حتى تتخذ شكلًا واحدًا فقط، هو الوحيد الذي سيظهر في الواقع. لكن هذا السلوك بطبيعته يحمل الكثير من التضاد والتناقض على مستوى الدوافع، مما يجعلني أرجع إلى نفس النقطة التي أكررها دائمًا وأتفكّر بها، وهي نفس الفكرة التي ألهمني بها العم عيسى سابقًا، هي إنه من الإستنقاص أن نضع المقياس الأخلاقي على سلوك المرء فقط، رغم أن تقشير السلوك حتى إبراز دوافعه الحقيقية، لهو أمرٌ معقدٌ للغاية.

لسوء الحظ؛ أنها مهمةٌ تروق لي، لكنني أعلم بأنها ستخسرني الكثير في يومٍ من الأيام، لكنها ستعوضني ما هو أنبل من كل شيء، إنّها المعرفة، المعرفة بالخبرة الإنسانيّة الأصيّلة، تلك الخبرة التي تتجاوز عالم المعلومات المتراكمة إلى ما هو كائن فينا.

ربما.. هذا الحديث عن السلوك والدوافع والحكم الأخلاقي، يتخذ موقفًا مشوشًا لا أكثر، لكن التفلّسف بطبيعته معقدًا كل التعقيد، ما أن يدخل الفكّر في هذه الحالة، يجب عليه أن يكون متشابكًا كما العقد التي يحاول حلها، لكن نتائجه حتمًا ستكون بسيطة، بلّ مباشرة وقد تبدو للآخرين سخيفةً وساذجة.

هذه الملاحظة، شاهدتها ماثلةً بعد قراءة كل المدارس الفلسفيّة ورواداها، وبعدما وجدت في التبرير السطحيّ محفلًا صاخبًا لتأسيس العُقد، يا لها من غرابة، إنها غرابة أن تكون إنسانًا.

كان لزامًا علي أن أذهب إلى فراشي، كنت قلقًا، كنت أريد النوم، نومًا طبيعيًا، خالٍ من الاستيقاظ. شعرت بأني أتراخى وأخمد شيئًا فشيئًا، حتى وجدتني في طريقٍ طويل، طويل للغاية، أكاد أجزم بإنّه لا متناهٍ وأبديّ، مما أستشعرت حينها، بأن لا فائدة من الحركة، بلّ أن كل أشكال الحركة فيها سوى ضربٌ من السكون. لأنّني، ما أن تخطر على ذهني فكرة المشي حتى أجد أن قدماي ثابتةً ومتصلّبة كما لو كُنت شجرة بلّوط كبيرة. ثم، بعد ذلك الإستسلام، لاحظت أناسًا يترنحون، متقوسي الرأس، باهتين، ذي وجوهٍ بيضاء وثيابٍ مثقوبة، مُتجهين إلى الأمام، كنت مستغربًا، كيف ذلك؟ كيف يمكنهم الحركة وأنا لا أستطيع ذلك؟ لكنّني بعد مشاهدتهم، شعرت بأنني أتحرك أيضًا.

كنت خلفهم، أتوارى بين ظلالهم، مما أنبأ لي أن هُناك نورًا في المقدمة، سمعت:

"تفضلوا، إنّكم في الملجأ، أستلقوا"

كان صوتًا أنثويًا، ناعمًا وحزينًا، صوتًا قد أدخل فيَّ الفجوة. يا للهول! إنّها مريم، أختي المسكينة. قالت بعد ذلك:

"لا عليكم، سننتصر، مهما زاد الظلم، هناك من يأخذ حقنا"

ابتسموا وتضاحكوا فيما بينهم ثم توجه النظر إليَّ، وأشتاح المكان سرابًا رماديّ إلى أن أشد لونه إلى سوادٍ عاتم، لألقى نفسي ملتفًا وضامًا يداي بين قدميَّ، هرولت عاثرًا خلف الأريكة، شاحبًا، واسع العينين، مختبأً كالفأر حين يشتم القط رائحته. يا لها من لحظةٍ وجوديّةٍ كبرى، يا له من رعب، لماذا كانوا يحدقون فيَّ؟ ولما هذه الهتافات التي تبدو موجهةً إلي؟

لبست حذائي، وفتحت الباب، وقفت أتامل السماء، لأجد نجمةً لامعة لا تحجبها الغيوم، منفردةً وحدها، كأنّها تقول لنفسها: "لن يقووا على إخفائي". قال لي بنبرته الباهتة:

- كُنت تحلم؟

.- نعم يا عم، نعم إنتابني كابوسٌ مُرعب

- حدثني عنّه..

بعدما حدثته وقصصت عليه كل تفاصيل الحلم، قال:

- وماذا بعد؟

- لا شيء هذا كل ما حصل

أهتز كل جسده من الضحك، وهذا ما أثار أرتيابي، قلت:

- ليس هناك شيء مضحك يا عم!

- دعني أكمل ضحكي، هذا كثير عليَّ

وأستمر متقلبًا في الأرض، ضاحكًا بعنف، مما جعلني أشعر بالغضب. قال بعد ذلك:

- وهل أنت تفكر بذلك حقًا؟

- ماذا؟

- أن تأخذ حقهم! مع (إبتسامة خبيثة)

- أنا؟ لا أدري، ولما لا...

كان يضحك بشكلٍ هستيري، مما جعلني أشعر حيال نفسي بنوعٍ من النجاسة، والخيبة القصوى. قلت له مُكملًا كلامي الذي أنقطع بسبب استهزائه الوقح:

- يا عم.. أنتبه.. أنتبه جيدًا! كان وجهها الباهت مرآةً لرجسي، وارتجاف يديها برهانًا على هشاشتي، على انكساري، على انتصار الشرّ الكامن فيَّ، ذلك المتناسق تمامًا مع شرّ هذا العالم. إنّها بالنسبة لي الآن، الرهان الأكبر على استقلاليه الاخلاق، أي من ناحية إرتكازها وثباتها، لأنّ الأخلاق العامة، تبدو كما كل المهمشين والمطرودين، ليس لديها بيتٍ دافء تأوي إليه. نعم، يمكن الملاحظة، وبتحليلٍ دقيق، أن الأخلاق لا تولد إلا بوجود ذاتٍ آخرى، أي هُناك ذاتٌ تراقب وتتابع ذاتًا غيرها، الأخلاق بهذا المعنى، هي الإهمال، أيّ مطّ الزمن أو تجميده عند لحظة الفعل نفسه، حيث يتطلب بالضرورة، الدخول والإنخراط نحو الغير، يا عم، الأخلاق الحقيقية التي أعتقد بها، هي الصراع الشريف بين ما ينبغي حدوثه وما لا ينبغي، اللّزوم بسلوكٍ معين مع الآخر، هذا السلوك المفارق لقوانين الطبيعة والجسد.

وأنا أكلمه، كان جالسًا، كتفاه مائلتان إلى الأمام كأنهما انحنتا من ثقل عمرٍ طويل، ويداه مسترخيتان فوق ركبتيه بلا توتر، كمن اعتاد الانتظار دون رجاء. كانت عيناه نصف مغمضتين، تُحدّقان في بقعةٍ غائمة على الأرض، لا يبدو أنه يسمع شيئًا مما يُقال، أو لعلّه يسمع، لكنه لا يرى ضرورة للرد. وراءه، كان جدارٌ متقشّر من الرطوبة، ومصباحٌ مائل فوق الباب يبعث ضوءً شاحبًا، يرتجف مع نسيمٍ خفيف كأنّه يوشك أن ينطفئ، تمامًا مثل حضوره نفسه. حتى حين ارتفع صوتي، لم يرفع حاجبًا، لم يتنفس بعمق، لم يرمش. كان جزءًا من المكان، ساكنًا، باهتًا، لا يُجادل الحياة، ولا يعاتبها. أكملت:

- لو أردت أن تتخيل، أن أمًا ما أنجبت طفلها في جزيزةٍ بعيدة عن الآخرين ثم تركته بلا رجعة، وبشيءٍ من المعجزة، عاش وأصبح شابًا يافعًا، لكنّه نجا وحده، لدرجة لا يدرك سوى نفسه، ولا يخطر على ذهنه وحدانيته الشرسة، هنا يمكننا أن نتسائل حسب هذه الفرضية تساؤلًا هامًا، وهو "هل يُمكن أن نعده في هذه الحالة من الإنفصال والإغتراب، كائنًا أخلاقيًا؟" بالنسبة لي، لا، لأن الأخلاق شرطها الأساسي هو الإشتراك والإنصهار بذواتٍ غيرها، أي يمكن القول، إنّها الشعور الداخلي العميق نحو الآخر. أي، يصبح الحديث عن الشر والخير بالنسبة له مُبهمًا ولا قيمة له، وما يفهمه من ذلك هو بُعد المنفعة والضرر، أي على قدر أستثارته وتحذيره فقط. فهل تريد يا عم أن أكون كما هذا الطفل الذي كبر منزوعًا من كل هذه القيم؟ أهذه فضيلتك؟ فضيلة السكوت، أهذه مدينتك؟ مدينة اللا مبلاة؟ أنا أعتذر، لكنّي ورغم أبدو لك مغفلًا، لكنّني أزعم أن هذا هو آخر ما تبقى لي من كوني إنسانًا

- لا أدري لماذا تحاول، الأمر محسوم...

- الآن قد فهمتك، نعم، تفككت أمامي جميع كلماتك وأنكشف ما ورائها من أنين، ماذا قلت قبل عدة سنوات؟ تذكرت، قلت لي بأنّك تجاوزت إنسانيتك، يا للأسف، يا للخيبة، أنتَ نحرتها مُنذ قررت الإنفصال عن مجتمعك. لأن سأعيد ذلك لك، "الأخلاق لا تولد وحدها" وهذا ما أكتشفته في لحظتي الآنية. ولا أقول بأن ليس لديك أخلاق بالمرة، فطالما هناك ذوات عاشرتها في حياتك، وذاتي أنا، التي تشاركك الحديث وتعزز الإنفعالات الإنسانية بيننا، فأخلاقك موجودة، لكن إتصالها هشّ، مرتبطٌ بي، ولا يقوى مفارقتي.. كم أنت ضعيفٌ إذن. كذلك لا أتغافل عن كلبك التعيس ومدى إرتباطكما الذي تحاول التعويض من خلاله عن الهوة التي تفصلك عنهم، كأنّها محاولة لترطيب الضمير من جفافٍ مؤكد، ذبولٌ مُحتم لا أمل لعدم حدوثه. ولذا، إذا كانت

الأخلاق اتصالًا، فإن الأنانية انفصالٌ خانق، انكفاء الذات على ذاتها، وعيشٌ مقيت تحت وطأة منفعة لا ترى في الآخر سوى وسيلة، ذلك الجزء المُرتبط بالشهوات، ولأن الشهوة مُشتعلة في حد ذاتها، وطبيعتها حالمةٌ بالإتمام والتنفيذ، فأي عزاءٍ يمكن أن نقدمه لهذا الكائن البشري طوال حياته؟ وآسفاه، وآسفاه.. نعم أنا أميز بين ما هو بشريّ، وما هو إنسانيٌّ بالأصل، أننا ننتمي إلى الفئتين، لكن الثانية دخيلة، لا أدري من أدخلها عنوةً عنّا، لكنّها بالفعل ليست من فعل الطبيعة، تلّك التي تسير بلا غايةٍ نهائيّةٍ أو هدف. وماذا أقول لك بعد كل ما قلت؟ أشعر بأن شيئًا ما قد غمرني، شيئًا ما قد أحاطني، وأن علي أن أرجع الناس إلى إنسانيتهم التي نسواها، سأذكرهم بها، سأذكرهم، سأذكر الجميع بذلك! سأمشي بينهم، بصوتي، أو بصمتي، حتى يستفيقوا. حتى يعرفوا أن هناك من لم ينسَ بعد. أشكرك على كل شيء قدمته إليَّ خلال هذه المسيرة التي جمعتنا، أشكرك كثيرًا، الآن يا عم، أسمح لي بالذهاب، هناك من ينتظرني.

- أذهب.

(البارت الثاني)

لطالما كانت الشمسُ تلسعني بلا شفقةٍ في هذه الأرض، التي تزفُّ الرمال الحارقة فوق النسمات، ولكن ما المشكلة؟ ها أنا وصلت إلى المدينة، مدينتي، التي أعتقد بأنّها ستتغير على نحوٍ غير مسبوق. الدكاكين حين تغلق أبوابها الثقيلة، تصدر صريرًا متقطعًا يعلو فوق صوت الرياح، ولافتات معدنية تتأرجح بخفة على أعمدة الصناديق، تصطدم أحيانًا بالأبواب المهترئة. الأرصفة تتصدع، الحجارة تتزحزح قليلًا مع خطوات الفتيان الذين يجثون بالقرب منها.

أنابيب مياه صدئة تتلوى على جدران المحال، النوافذ المهشمة تتقلب بعض الزجاج فيها، ترفرف كأجسام صغيرة مع كل هزة في الجدار، وأعمدة الإنارة المائلة تتمايل كما لو أنها تتنفس، بما فيها الاسلاك الكهربائية تتشابك فوق الرؤوس، تصدر أحيانًا فرقعات صغيرة.

فتحات الصرف تتدفق منها مياه متقطعة، تتناثر عند كل خطوة. القناني البلاستيكية تتدحرج، أكياس الورق تتطاير، وكل شيء في المدينة يتحرك بلا توقف، لكن هذه الحركة تمتاز بكونها تبث الرهبة والقرف.

وأنا أتمشى، كنت قد سمعت صوت أمٌ توبخ بنتها الصغيرة بسبب أنها أفرطت بالأكل، وتقول لها:

- ماذا فعلتي! ماذا تبقى لي من الطعام!

أجابتها بنبرة حزنٍ وخوف:

- أنا آسفة يا أمي، آسفة، لم أقصد، كنت جائعة..

- جائعة؟؟ وتأكلين كامل حصتي؟ يا لكِ من عاهةٍ علي، لا أدري كيف سأغفر لنفسي لأنّني أنجبتكِ

دفعتها على منحدرات الرصيف، بلا أماراتٍ تدل على التراجع، لقد بدا المشهد غير مألوفٍ لي على الإطلاق، أصابني بالاندهاش والريبة، أي أمٍ تكون هذه؟ ذهبت مسرعًا إليها، صارخًا بوجهها، أجابتني بأستغراب وهي تتلمس بيديها صدري وتتفحص ملابسي بهيجانٍ وولع:

- من أنتَ؟ هل لديكَ بعض الطعام؟ كأنّك أحد هؤلاء الأثرياء، ولما لا؟ أنك واحدٌ منهم، هل تريد أن أعطيك أبنتي مقابل المال؟ وأسمحلي سيدي، أنت أختر المبلغ الذي ستكرمه على حالي الوضيع، فأنا أقبل أن شخصًا كريمًا مثلك قد يشتري مني أبنتي، لذا خذها متى ما تشاء، إنّها مُلكك من الآن وصاعدًا

أبتعدت عنها منقرفًا، وقلت:

- هذه أبنتك!! كيف تقولين ذلك!

- ألا تريدها؟ أنظر لها، أعلم بأنّها تبدو نحيلةً بعض الشيء، لكنّها تحافظ على جمالها الرقيق، أنظر جيدًا يا سيدي، فقط لدقيقةٍ واحدة، أرجوك

ابتعدت عنها بمسافة مترين، لأجدها تنفجر وهي تلعنني بقسوة، ثم رحلت تاركةً أبنتها تبكي في الشارع. رفعتها ثم حاولت أن أمسح دموعها، وأحادثها ببعض الكلمات التي تهدأ من روعتها قليلًا، وإذا بها تضع يدها في جيبي وتأخذ محفظتي وتجري منفلتةً من بين ذراعيَّ النحيلتين، لم أتوقع أن تسرقني أبدًا، خصوصًا وهي بهذا الجسد الضعيف الذي لا ينبأ عن سرعةٍ كهذه. بقيت متربعًا على الأرض بحيرةٍ صاعقة، كيف لمثلها أن تفعل ذلك؟ أين البراءة التي أعتدنا وجودها في مثل سنّها؟ لا، الأمر ليس كذلك؟ كيف؟ كيف قلت ذلك؟ أنّها من المؤكد كانت خائفة مني، وظنتني هذا الشخص الذي سيعتدي عليها ويأذيها، ناهيك عن كونها تشعر بالجوع، فلما أنا مستغرب من ردة فعلها؟ كانت طبيعيةً تمامًا، نعم طبيعية.

أكملت الطريق، أشق الدروب واحدًا بعد الآخر، حتى أنتهى المطاف بي عند دكانٍ لأحد الباعة المتجولين، جلست بقربه، أخرجت كتابًا صغيرًا من جيبي، كنت قد نسيته داخل جيوب ردائي المهترئة، فلم يحترق مع الكتب الآخرى، في تلّك اللّيلة التي سجوني فيها بتهمة بيع الكُتب المحرمة. كان يحتوي على بعض الخربشات على أوراقه، التي تذكرني بأختي عندما حاولت سابقًا أن أهديها هذا الكتاب، فرفضته بهذه الطريقة.

كان يومًا فظيعًا للغاية، لكنّه اليوم، وبعد فقدي لها، كلما أطالعه أشعر بالحنين وبعض الدفء الثقيل إتجاهها. لا سيّما، هذا الحُلم يتردد على ذهني كثيرًا، وأراهُ يتجسد متطابقًا مع محتويات الأشياء التي تلتقطها حواسي من الخارج، الحواس التي تخدعنا كثيرًا؛ وبرغم ذلك، يتبعها النّاس دومًا في معرفة العالم وفهمه، ولا اقول أني أختلف عنهم، أنا جئت لهذه المدينة بنفس ما آوتي إليّهم من قوة الحواس، لكنّني أملك هدفًا نبيلًا، وهو، إصلاح النّاس، ومسح جفون الإنسانيّة بعدما ملأها الغواش العتيق، وربما هذا ما يجعل مني مختلفًا عنهم، أوليس ذلك صحيحًا؟

كان الدكان يبيع بعض الحليّ، من أقراطٍ وأسوارٍ وقلائدٍ وحلقاتٍ فضيّة متنوعة الأشكال، لكنّها تالفة ويخنقها الغبار المتين حد أنّك لا ترى سوى الهبوب الذي يعلو فوقها. وكان يرأسه رجلٌ يبدو في الأربعين من عمره، جامدًا، عفنًا، تفوح منه رائحة العرق النتنة، إن دلت، فهي تدل على إنّه على شجارٍ قديم مع الماء، سألته:

- هل تعلم أين هي المنظمة التي يديرها السيد إسماعيل؟

لم يجبني في البرهة الأولى، ثم كررت السؤال حتى أفاق من صمته قائلًا:

- وماذا تريد من الرئيس الجليل؟

- جئت لأحدثه عما تعلمته من هذه الحياة، وأريد أن أعيد النور إلى هذه المدينة مرةً آخرى، بعدما غطّت في الظلمات.

- هل تقصد بأن مدينتنا مظلمة؟ وتحتاج إلى النور؟ أتتكلم عن مدينتنا المتكاملة العظمى؟ يا إلهي! أتشك بحكم صاحب الجلالة، الرئيس الجليل الفاضل، بأنّه رجلٌ شرير وغير جديرٍ برئاسة مدينتنا! فرّ يا هذا، قبل أن أقطع رأسك وأقدمه فداءً إلى جمهوريتنا العريقة، أتشكّك في سيدي أيّها الجرذ الماكر، كيف لك أن تتفوه بهذه الحماقات! فرّ فرّ! آسفي على قدماي التي لا تسعفني للنهوض؛ وإلّا لما كنت حيًا.

طوقني الإستغراب بعد كل ما قاله لي، فحاله وحال هذه المدينة لا يعرف من خيوط أشعة النور شيئًا. لا أدري، أعتقد بإنّه فقد صوابه، ولا يعي ما يقول، ومن الحسّن والنُبل أن لا ألوم مجنونًا على ما يبدر من لسانه.

****

بعد ثلاث ساعات، داست خيول اللّيل أسطح المدينة، وغصّت السماء بالسُحب الداكنة، وأرتفع صوتُ فحيحٍ مدوي بين النسمات الهاربة من سجون الظلام. كنت وحدي، جائعًا وبلا مأوى، أتمشى في الشوارع خاليًا من أي وجهة محددة. فتحت حقيبتي، عسى ولعل أن أجد شيئًا أكله، لكنّها كانت فارغة تمامًا.

كان على أعمدة الكهرباء المتهالكة فوانيسٌ، لا تبث الضوء بقدر ما يبث زجاجها المُتكسر الريبة، وحواجزٌ صخريّة بين جانبٍ وآخر. وهُناك عند كل عتبة بابٍ، ظلٌ طويلٌ شاحب، لا يتحرك أبدًا. كأنه يحرس المنزل من أي وهجٍ دخيل.

أثناء ذلك، مرّت عربة مُسرعة، وخرجت يدٌ نحيفة من بابها الأيسر، فإذا بها تجر حقيبتي وهي مربوطةٌ على ظهري مما جعلني أتشقلب حتى أنزلق منها هو الآخر. جمع قواه وقام بموازتي مرفوع اليدين، يتحضر لمبارزتي رغم أنني لا أعرفه، سألته:

- لو طلبت حقيبتي لأعطيتها لك، لماذا كل هذا العناء؟

تفاجئ قائلًا بكل تلكأ وخوف:

- أفتح جيوبك! هيا، لدي سكين، سأقوم بطعنك، هيا بسرعة!

عندما لم يجد شيئًا دفعني على الأرض وأصطدمت بمقدمة الرصيف وأغمى علي.

مرّ وقتٌ وأنا على هذا الحال، لأجد نفسي فجأةً أفتح عينيَّ، كنت أرى أضواءً متموجة لكن فيها شخصٌ يبدو كأنّها امرأة. فتحت عينيَّ بالكامل؛ لأجدها تفتش جيوبي واحدًا تلو الآخر، فدفعتها، ثم عندما عثرت ساقطةً على الأرض، رحت أعتذر منها، كان وجهها مغطى بأصباغ مستحضرات التجميل، فلم يبرز من ملامحها شيء. سألتها:

- عن ماذا تبحثين؟

- وماذا يبدو لك أيّها الغبي؟

- لماذا تفعلين ذلك؟

- إذا كان لديك القليل من المال سأقول لكَ لماذا

- ليس لدي شيء

- إذن ليس بقائي معك سوى مضيعةٍ للوقت

وقبل أن ترحل، وهي تضب حقيبتها الصغيرة، وترفع فستانها بعدما ظهر الجزء السفلي من جسدها، سألتها بلهجةٍ حائرة:

- لماذا تضعين هذا الكم الهائل من مستحضرات التجميل؟

- لماذا؟ هل نمت مع امرأة مثلي من قبل؟

- لا

- كيف ذلك؟ وهل هناك أحد لا ينام مع العاهرات هُنا؟ على العموم، عندما تنام مع أحدهنَّ ستعرف الإجابة

- أجيبيني وسأعطيك حقيبتي، أعلم أنّها فارغة، لكنّها ربما تفيدك في وضع أغراضكِ الخاصّة

- رغم أنّها صفقة غبية، لكن عدم مقايضتك أكثر غباءً منها. حسنٌ، لا يهم، أسمع أيّها الغبي، عندما ينام معي الرجال لا يهتمون كثيرًا بملامحي، بقدر ما يصبون إهتمامهم بالجسد. هذا هو السبب بكل بساطة، العاهرات اللّواتي يعملنَّ معي يضعنَّ هذا الهراء على وجوهنَّ ليميزنَّ عن باقي النسوة، النسوة اللّواتي يعملنَّ مثلنا أيضًا، لكنهنَّ يخترنَّ العمل وراء الجدران بلا صوتٍ مسموع فحسب، فكل النساء هُنا عاهرات يا عزيزي، لذا، أن أعجبتك واحدة، فقط أظهر لهنَّ بعض القطع النقديّة وأستمتع.

بقيت صامتًا أمامها وهي تنظر لي بكل شفقةٍ وإستضعاف، ثم قالت وهي تضم حقيبتي على ظهرها راحلةً: "وداعًا أيّها الغبي الغريب". قلت:

- أريد معرفة شيئًا آخر..

- لا تستغل كرمي أيّها الغبي

- أريد معرفة مكان الذي يتواجد فيه السيد إسماعيل

همهمت ثم قالت:

- في وسط المدينة، قرب ما يسمى بجسر الفضيلة.

رغم بشاعة ما قالته عن النساء أجمع، بوصفهنَّ كعاهرات، إلا أن هناك خيطًا رفيعًا من البسمة في كلامها قد لامسني حين أعربت لي عن ذلك، ولاسيّما حين قالت بأن هناك من يمارسنَّ الغواء سرًا وكتمانًا، هذا أن دل، فهو يدل على وجود خجلٍ ما، وإن كان خجلًا عقيمًا وشاحب، لكنّه ومع كل ذلك، أفضل من عدم وجوده. أوليس ذلك صحيحًا؟ نعم، ربما هناك فرصةً لأعادة أحياءه بأزهى الزينات وأرقها فخامةً. هذا ما أنوي فعله، وهذا ما سأحققه كما وعدت العم عيسى الذي نفى جلّ طموحاتي وأبغضها.

كان جسر الفضيلة الذي دلّتني عليه تلّك المرأة الغريبة يبعد بعض كيلو متراتٍ عني، لكن ذلك لا يقدر على إيقاف عزيمتي إلى الوصول إليه رغم ما أعانيه من صداعٍ حادٍ الآن. استمريت أقطع الشوارع واحدًا تلو الآخر، بقدمين حافيتين صغيرتين، يكاد يبرز منهما عِظامي الهشّة، "يا لحماسي" هذا ما سمعته حين أغمض لاهثًا من التعب! كان صوتًا إستخفافيًا، نابعًا من ثنايا جسدي الضعيف، ولكن ما أهميّة تشريعات الجسد أن كنّا نمتلّك ما هو أقوى منه؟ عقلنا الذي ينهج لنا شيئًا مختلفًا عن الثبات الدائم لدى كل الكائنات الآخرى، كالحيوانات مثلًا، فهي تعيش بصفاءٍ تام، متجانسةٌ مع جسدها، لأن ليس لديها القدرة على الإعتراض على ما يدعو إليه الجسد، سواءً عند الهرب من مكروهٍ ما أو الإسترخاء تحت ظلٍ دافئٍ قرب فريسةٍ أكلتها للتو.

إن مفهوم العزيمة إنسانيّ بالأصل، لأننا الوحيدون الذين نتحدى كل شيء، من أجل شيءٍ واحد، شيء له قيمة بالنسبة لنا، وإن كان سخيفًا، بغض النظر عن ذريعة ذلك، فأنه لا يوجد حيوانٌ يعزم على إتمام فعلٍ سوى لأنّه يشعر بالجوع أو الخوف من القتل. وهذين السببين -أو أن صح التعبير عنهما بالقيمتين- يتحرك بسببهما الحيوان بكل ضراوةٍ وحشيّةٍ إلى الأبد.

بعد هذا العصف الذهني الخطير، وجدتني قرب مكاني المعهود، "جسر الفضيلة"، يا له جسرٌ محطم! ماذا؟ تذكرته! كنا أنا واختي هنا ذات يوم، لكن أين يقطن السيد إسماعيل؟ لا توجد مبانٍ ولا دورٍ للسكن هُنا، رحت أقلب المكان يمينًا وشمالًا، لكن لا شيء سوى الصخور المهدمة والحديد المتصدأ، بلكاد يمر بعض الناس حوله.

نظرت، وجدت بعض قطع الخبز المتعفن وقطع نقود تلمع تحت الرمل. حفرت بسرعة، وجدت ما يكفي لشراء رغيف خبز، وضعت النقود في جيبي، وقلت لنفسي؛ لعلي أساعد أحدهم بها، أحدًا يحتاجهم أكثر مني. حسنٌ، سأنام بين هاتين الصخرتين ولعلّي أجد ما أصبو إليه غدًا.

(البارت الثالث)

- لنأخذ قبعته، هيا!

- لا قيمة لتلّك القبعة، أنّها رّثةٌ للغاية

- ليست كذلك، سأقوم بسرقتها حالًا

- هيا يا صديقي إنّها لك...

أستيقظت على هذين الصوتين الهامسين، كانا طفلين، يبدو عليهما من العمر ما لم يتجاوزا العاشرة. فقد تخابا كليهما حينما شعرا بأنّي سمعتهما. يا لحالهم! إنهما هزيلين جدًا، وضعفيّ البُنية، كأنّما بشرتهما تتساقط مع كل حركةٍ يفعلاها أثناء ذلك. كُنت قد رفعت ظهري بما هو أعلى من الرصيف قليلًا، قلت لهما:

- أهلًا بكما يا صغيرين، ماذا تريدان، هل يمكنني مساعدتكما؟

- اعطينا قبعتك وإلا قتلناك فورًا

اعطيتهما بكل هدوء، وانصرفا مستغربين وهما يتضاحكان: "يا له من جبان، يا له من عجوز ساذج" ثم أخذت افتش عن حقيبي، وتذكرت إني قايضتها في البارحة، لذا؛ قمت وأكملت مشيًا أبحث عن المدعو سيد إسماعيل.

تابعت سيري بلا توقف، لكن كلما تقدمت أكثر، كانت الحيطان تتآكل أمامي، كان مكتوبٌ عليها شعاراتٌ قديمة عن النصر والحرية. والروائح تخرج من النوافذ كسعال مزمن، والأبواب موصدة كأنّها تخجل من ضوء الشمس. مرّ جردٌ بجواري ثم اختفى بين النفايات الملقى على الشارع. لم أعر أي أهمية لذلك، رغم أن الريح المحمّلة بالغبار تلفّ عنقي، والأصوات من حولي تتصاعد ثم تخفت، كما لو أن المدينة بأكملها تتنفس بخجل.

أثناء تنقلي المستمر بين هذه الدرابين، لمحت شخصًا قد كنت أعرفه، يا للهول! إنه أستاذي، موسى! ذهبت مسرعًا لألقاه، كان يعمل على طرق الحديد بكل رتابةٍ وخمول، قلت له:

- كيف حالك أستاذ موسى؟

ما هي إلا ثواني وأجده يرفع مطرقته فوق رأسي، قائلًا:

- ماذا قلت؟؟؟ أستاذ موسى؟ من هذا؟

- عفوًا، لكني أتذكرك جيدًا، أنت من درستني بالجامعة، كنت أخذت عندك الكثير من الحصص عن التاريخ و...

أجابني وهو يختبئ خلف ظهره المتين:

- أنت مخطأ...

- لكنني أتذكرك يا أستاذي وكيف أنسى ملامحك؟

لم يجب، وفي هذا الصمت المهيب، ضجت خطوات طفلين يقفزان مرحًا:

- يا أبي، يا أبي لقد سرقنا من عجوز ساذج، هذه القبعة، أنظر كيف هي مناسبة لك!

- أحسنتما يا أولادي، أكملا عملكما، الوقت مُبكر على الرجوع إلي.

بعد دقيقة من ذلك، تفاجئا برؤيتي، قالا له:

- يا أبي هذا هو، هذا العجوز الذي أخذنا منه القبعة، أنظر لحاله كيف يبدو مُضحكًا

- ماذا قلت لكما قبل قليل؟ هيا أغربا عن وجهي.

شعرت بوخزة وغصةٍ عميقة، كيف ذلك؟ أليس ذلك من كان يعلمني كيف أتعامل مع الآخرين؟ أليس هو من قال لي ذات مرة، "الآخرين أولًا ثم أنت". كيف أضحى بهذا الشكل وتلّك القيم اللا إنسانية التي كان ينبذها؟ ما هذا الخواء العجيب الذي يكتسح تلّك المساحات الخضراء التي كانت تمرح فيها الأخلاقيّة بكل رشاقةٍ وشبق، مما يجعل وجودها مرعبًا، عوضًا عن كونه لا شيء، وما هو أكثر رعبًا للإنسان من اللا شيء؟ اللا شيء، هذا الوجود الذي ينتقم من نفسه. قلت له:

- هل لي أن أسالك شيئًا ربما تعرفه

- عجل بذلك ليس لدي وقت لك

- هل تعرف أين أجد السيد إسماعيل؟

غضب صارخًا بوجهي:

"لن تجده.. لن تجده.."

ورمقني هو يمسك قميصي وصوت تمزقه يخرخش أذني ويهمس لها بالرحيل.

****

عندما رحلت من مسكنه، قلت لنفسي، كيف سأغير من حالهم إذا ظل الوضع هكذا، لا أنا متأكد من نيته السيئة، ولا أنا ألقاه، لكي أقوم ببعض التفاوضات على الأقل بدلًا من أقناعه بأن تصب بصيرته نحو مدينته التي يرثى لحالها، لكن لا شيء من هذا إلى حد الآن، "لماذا لا أجده"، أقولها بداخلي منفعلًا، وأردد اسمه بعقلي، رغم أني أعلم بأن هذه الطريقة لن تلقي على ظلالي أية فائدة.

تمشيت وحدي وأقنعها بأني سأغير كل ما يسود في هذه الأمة، كان الشارع مظلم رغم أن أن شمس الظهيرة تلوح في الأفق، والنسمات تهرول كجريح فوق الأغصان المتدلية، يا لقباحة هذه الرائحة، أنّها رائحة الآراكيل مجددًا، وأنا أرفع رأسي أجد لافتة مكسورة، يبان منها بعض حروفٍ مطبوعةٍ عليها، بدوت كطفلٍ اتهجاها، مق.. مقه.. مقهى كل.. كلكا... مش...

توقفت وإذا بي أتذكر، أنه مقهى كلكامش! لكنه لا يبدو كأي مقهى، هناك رائحة اخرى تفوح منه، تقربت ودخلت، وجدت الكراسي مقلوبةٌ فوق بعضها، والزجاج متناثرٌ على عتبة بابه الخشبيّ، وخراطيم الآراكيل مرميةٌ ويعلوها الغبار، إذا بي ألمح فتاةً صغيرة تفتش بين الرفوف، تقربت منها، لكنها في نفس اللّحظة قررت الهروب. قلت لنفسي، ربما هيئتي القبيحة أخافتها، فقررت أن أعدل كرسيًا وأجلس عليه.

أثناء ذلك، حدث شجارٌ بين أثنين، وقادهما ذلك إلى قتل أحدهما الآخر، كنت أراهما حاميان وشرسان نحو بعضهما، لكن ذلك لا يستمر، فلقد أطاح أحدهم بالآخر وأدماه لكمًا على الوجه، لم أعرف ماذا أفعل، كنت جائعًا، مرّ أكثر من أربعة أيام وأنا لم أكل شيئًا، فعندما هرب الرجل الآخر، سقط من جيبه رغيفٌ متعفن، كان قد تناثر بسبب كونه يابسًا، وحين همَّ بالإبتعاد، وقفت أمام الخبز الوسخ هذا، ثم هلمت للخروج من هذا المكان المظلم، ولم أحاول أكل هذا الخبز، لأنّي معدتي لم تشفى من تقلباتها بسبب ما أكلته من خبزٍ عفن وجدته قبل يوم.

****

مضت ليلتان حالكتان ومقرفتان، حتى فاق الجوع من نومه وغدا غولًا. كان هناك سوقٌ قديم، والناس يحومون بين الدكاكين، والحيوية التي كنت أحلم برؤيتها وجدتها ثانيةً، لكنّها حيويةٌ رماديّة، كانت الفوضى تحيط هذا الدرب الطويل، كنت منشغلًا أفكر بمعدتي، وكيف سأشبعها، وصوتًا ما همس لي، "ضع يدك في جيبك"، فإذا بي أجد نقودًا تقبضها أصابعي، قلت لنفسي، لما لا أشتري لي رغيفين من الخبز؟ ربما كان ذلك لمساعدتي، حتى أستمر بمهمتي وأقوم بأكمالها.

كان في ذلك الطريق أمٌ وأبنها اللّذان كانا يبكيان سويةً، جائعان مثلي أيضًا، لكني لم أشعر بهما مطلقًا، بلّ لم يخطر على بالي بأن هناك أحدًا، كنت متوجهًا بشغفٍ؛ لشراء بعض الخبز لي، وأتطلّع إلى كسرة الرغيف السمراء هذه بحنانٍ ووَّد، أهناك أجمل من الشعور بالشبع بعد جوعٍ عنيد؟ هلّمت بأكلها وأستمريت أمشي قاطعًا كل هذه المسافة بذهنٍ سارحٍ وحواسٍ مخدرة. فلقد كان في طريقي هذا، هبابٌ خفيف، توجهت نحوه، كان يتمايل مع الهواء بغرابة، ويحمل معه رائحةً نفاذة.

أغمضت عينيَ تعبًا، أردت الجلوس على الأرض لعدة دقائق فحسب؛ لأني شعرت بأنّني أعرف هذا المكان جيدًا، زارتني سكينةٌ خفية، شيءٌ حميميٌ كان هنا، يا ويلاتاه! ما هذه الرائحة الآخرى؟ تقربت وعبرت الشارع إلى جهة اليسار، أجد بابًا حديديًا مُقفلًا. قلت لنفسي"هذا المكان، يذكرني بشيءٍ كُنت أُحبه، لكن ما أدري ما هو" ثم قررت الاستسلام لفكرة الجلوس. جلست بقرب الباب الحديدي وأغمضت عينيَ قليلًا. كانت إغماءةً توحي بأنّني على إستعدادٍ لنسيان أي شيء، إغماءةً مُثقلةً بالعبء واللوم والجموح غير المبرر.

(البارت الرابع)

- من هذا العجوز؟ (بتهكم)

قال صوتٌ آخر:

- لا أدري، ربما سكيرٌ أو قوادٌ ما، بمثل حاله كيف يجد قوت يومه، حتى لا أستطيع القول بأنه سارق، كيف يسرق وهو يمتلك هذين الساقين المضحكتين؟ إذن هو أما سكيرٌ أو قواد.

- أتريد أن نتأكد من ذلك؟

قذفا سطلًا من الماء عليَ، ثم فزرت مهروعًا بوجههما.

- ماذا تريدان يا سيدان مني؟

- نريد أن نفتش جيوبك، هل لديكَ عرقٌ ؟ أبيضًا، أسودًا، أيًا يكن، أيها العجوز

- لا

بعدما قام بتفتيشي بكل همجيةٍ ووقاحة، قال أحدهم:

- إذن هو قواد! أين زوجتك، أو بنتك، أختك، أي واحدةٍ تكفي بالغرض، هيا أيها العجوز الغبي، هيا! أعطني أحداهنَّ... هيا!

لم أجبه، كان الدوار الذي أحسه، قد وضعني بموضع الإرتجاج -ذهنًا وجسدًا- وكان لهيئتي التي يبدو عليها المرض، كفيلةً بإبتعادهم عني، لأنّهم شعروا بأن موتي قادم، إذا لم يكن بعد ساعات، فهو بالغد حتمًا. وتغاضا عن قتلي لأنّهما كانا يبادلاني نظرات اشمئزازٍ ونفور. أغمضت مُجددًا وغطّت بحلمٍ لا أتذكر تفاصيله جيدًا. سمعت شخصًا يهمس بإذني، لكنني؛ وبعدما أدركت ذلك، فزرت.

- أستند على ذراعي أيها العجوز

- من أنتِ؟

كنت لا أستطيع تمييز ملامحها، لكن صوتها مألوفًا لي، لا يثير فيَّ الاستغراب والحنقة. رفعتني وأخذت بي فاتحةً هذا الباب الحديدي الصغير. كان هناك صخبًا مثير، وأضواءً مُتراكمة فوق بعضها، وأصوات مضاجعاتٍ، وروائح أجسادٍ كريهة. كانت هذه المرأة التي تبدو لي معروفة، تغطي ملامحها بالمساحيق الغامقة، فعرفت أنّني مع إحدى النساء التي تعمل في الغواء. وإن هذا المكان الرهيب، الذي يعج بالشهوانيّة البغيضة، يجعلني أشعر بدوارٍ أكبر مما أنا عليه. قالت:

- نم هُنا في هذه الغرفة، ولا تجب أي شخصٍ من خلف الباب لأي سببٍ كان، سأرحل حالًا.

سمعت صوت طقةٍ من مقبض الباب، ثم أغمى على جسدي في هذا الفراش الصوفي بدون أي تصدٍ مني. كانت تجلس بقربي، اقتربت بصمت، ودفء يديها يسبق الوخز، ثم غرست الإبرة برفق. لم أرتجف أبدًا، فقد كان لمعان عينيها أسبق من برودة المُعقم. ثم بدت تنظف جروحي التي برزت على جلدي بعد كل هذه الأحداث السيئة التي حدثت لي أثناء هذه الرحلة الطويلة. كنت قد شعرت بأن هُناك وهجًا يلعب على أصابع يدي، ففوجئت بها وهي تنظف أصابعي من الدماء التي هي دمائي اليابسة بعدما مسحت وجهي مُسبقًا، إثر سقوطي أرضًا في الأمس. وجدتها تضع في المحلول شيئًا لم ألفهُ، قلت لها:

- من أنتِ؟

- نمّ.

****

أستيقظتُ مرعوبًا على صراخِ طفلةٍ، لم يكن بمثابة نداءٍ أو استغاثة؛ بل احتجاجًا تكسّر إلى موجاتٍ عنيفة، تُشبه تمزّق ستارة الليل على يدِ برقٍ حاد، صاعدًا من حنجرةٍ صغيرةٍ كأنها لا تحتمل الألم، لكنها تأبى الصمت. كان الصوتُ يرتطم بالجدران كصوت زجاج يُداس حافيًا، ويعود إليّ كأنّه يطالبني بفعل شيءٍ لا أعرفه، صرخةٌ تنبضُ فيها الحياةُ مجروحة، مخلوقة من فزعٍ نقيّ، كأنها تقول: "أنا هنا". لم يكن البكاء فيها، بل كانت العاصفةُ نفسها، تحمل في ذبذباتها خوفَ أُمّةٍ، ووحدةَ كوكب. كانت تقول: "لا تفعلوا.. لا تلمسوني... أنا.. أنا مجرد طفلة" فأنفجرت غضبًا، وحين ما أردت فتح الباب، سمع أحدهم طرقًا مدويًا بسبب فقدي لإنفعالي الكبير، فجاء يفتش الغرفة ويضع رأسه على حوافه، مُناديًا: "من هنا؟ من بداخل الغرفة" لكن الباب كان مُغلقًا بعناية.

بعد ثوانٍ دخلت هذه المرأة مُسرعةً، وهي تلزم فمي بقبضتها الناعمة:

- ألم أقل لك ذلك! لا تتصرف بغباء حتى لو سمعت أي شيء!

دق أحدهم الباب ورائها مباشرةً، يهمس من خلف المقبض:

- أيتها الجميلة، سأدفع لكِ أكثر مما يدفعه هذا الزبون النجس.

من هذا؟ صوتٌ اعرفه، علي؟ زوج اختي؟ ثم إذا به، يركل هذا الباب المهترئ بضرباتٍ مُتتالية؛ حتى سقط متكسرًا كالبلور فورًا. ودفعني بغريزةٍ عمياء على الطاولة الأمامية من السرير. عصرها من رقبتها، ورماها على الفراش بسهولة. كانت تنظر لي، ليس كأي شيء، بل ظلّ جسدٍ مُطفأ، كأن كينونتها انسحبت منها تاركة وراءها قالبًا هشًّا من اللحم والفراغ.

كانت ممددةً كما تُمدّد الجثث في قاعات الانتظار الأخيرة، عينان بلا رمش، تشبهان مرآتين عاطلتين عن عكس أي شيء، نظرة لا تسكنها الرغبة، ولا تطردها. أما هو، فكان يتحرّك فوقها كأنما يُصارع العدم ذاته، كل رعشةٍ منه تُصفَع بخدرٍ أبديّ، كل نداءٍ فيه يضيع في صحراء من صمتٍ بلا صدى. لم تكن تُقاوم، ولا تشارك، كانت تؤدي فعلًا كما تؤديه الآلات البكماء في مصانعنا القديمة.

كان جسدها طريًّا، لكنه لا يُعانق؛ بل يُبتلع دون شهوة، وانتهى كما ينتهي المطر في أرضٍ صخرية، بلا نبتٍ أو أثر. خرج من الغرفة وهو يتخيل أنه لمسها. لكن الحقيقة، كان بينهما آلاف الأميال من البرود، كأنها لم تكن هناك، وكأنه لم يكن أحد. قال لها وهو يرتدي بنطاله

- أداء سيئ.. للأسف أضعت وقتي معكِ

- أعطني مالي

أعطاها ما تريده وذهب، وهو يستهزأ بحالي، كنت أتذكره طيبًا وخلوقًا، ومع ذلك بدا ليس نفسه الذي عرفته. لكن الذي أثارني حقًا، أنني ولأول مرة أرى شيئًا كهذا.

لم أعتقد بأني سأعيش مثل هذه التجربة، لم يسبق لي أن أضاجع امرأة، ثم إذا بالقدر، يجعلني شاهدًا على مواقعةٍ قبيحة كالتي حدثت للتو. كنت اسأل نفسي، لماذا لم يخجل مني؟ رغم أنه زوج أختي، ولماذا لم أغضب؟ ولماذا بقيت ساكتًا كل هذا الوقت ولم افعل أي شيء؟ قلت لها:

- لما... لماذا لم تقاوميه حتى؟

قالت بهدوء:

- أخرس

- كأني أعرفكِ.. من أنتِ؟ ولماذا تساعديني؟

- احزم غراضك، سنغادر الآن

رمّت عليَّ حقيبتي التي قايضتها مع بائعة هوىً كنت قد التقيتها قبل أيام. أجبتها:

- من أين جئتِ بها؟

- كفاك تطرح أسئلةً كثيرة، أحزم اغراضك حالًا

- أأنتِ نفسكِ؟ لماذا... لماذا كذبتِ علي؟ لم أجد إسماعيل حتى هذه اللحظة! أين هو؟ لماذا اعطيتني معلومةً مغلوطة حول مكانه.

ضربتني كفًا، وأمرتني بالسكوت. لكني عاودت أن أسألها مرارًا. سرعان ما سمعنا دويًا بالأسلحة الرشاشة، فإذا بها تهيئ لنا الهروب بسرعة، تاركين ورائنا أغراضًا نويت أخذها معي.

- أنهم يريدوني، أذهب! أذهب!!!

- لم أتركِ! كيف لي أن أفعل ذلك، سأقوم بحمايتكِ

نزلنا من النافذة بهدوء، وركضنا لاهثين. ركضنا بين الأزقة الضيقة، تتساقط أنفاسنا كأوراقٍ في الخريف. كانت خطواتي البطيئة تعيق هروبنا بشكلٍ أسرع مما نرجوه. فجأة، صاح أحدهم بها، لكن الصوت تلاشى في فوضى الرصاص.

صرخت: "آه!"

لمحت رصاصةً تخترق قدمها، فتعثرت على الأرض بلا توازن، وغاصت في بركةٍ موحلة تغطيها طبقة من الأوساخ. كان صوت وقعها على الماء مزيجًا من صمت الوجع وبؤس النجاة، وابتلّت رياح الليل برداء الخوف عليها.

توقفت خطواتي، وتحول الركض إلى هوجة من الذهول والرجاء. كانت تنظر إلي بعيونٍ تملؤها دموع الألم والهلع، حتى انكشف وجهها من المساحيق الرديئة التي كانت تغطيه بضراوةٍ وغموض.

يا للهول!! إنها هي... المُمرضة نفسها! آهٍ ماذا أفعل! ركضت نحوها فإذا برجلٍ من الذين كانا يلاحقانا يركلني على بطني وهي تنزف بقربي بدمٍ لا يكف هيجانه، ولا تقل مناسيبه.

- أنتِ، مُمرضتي، حبيبتي، غاليتي.. آهٍ، كم أحنُّ لكِ، لم تغادري خاطري إطلاقًا، قلبي يخفق... ثم... ثم لماذا؟

كانت تنزف بشدة، وتقول:

- أهرب بعيدًا، أهرب... هذا العالم غير جديرٍ بك.. أهرب.

أطلق رصاصتين آخروتين في ظهرها، حتى تناغمت الدماء مع شعرها القرمزي، الذي يشبه لون أزهار الكركديه

في تلك اللحظة، حين بصقت دمها، لم يكن الفعل مجرد استجابة جسدية لوجعٍ عميق، بل كان تعبيرًا رمزيًا عن صراع نفسي محتدم داخلها. البصقة الدمويّة، تمثل رفضًا واعيًا أو غير واعٍ للواقع القاسي الذي تفرضه عليها الجروح، محاولة للتمرد على الإحساس بالعجز والهزيمة. الدماء هذه التي خرجت من فمها النقي ليست سائلًا فقط، بل هي تجسيدٌ لتلك الكراهية والاحتجاج الداخلي، نزيف الوجدان الذي يرفض أن يُمحى أو يُنسى. هو صرخة صامتة تتحدى الإحساس بالانطفاء، محاولة لاستعادة السيطرة على الذات وسط تسيب العذاب الرهيب. هذا الفعل، بالرغم من بساطته الظاهرية، يحمل في طياته إصرارٌ على البقاء، لكن أي بقاء؟ قالت وهي تتلفظ أنفاسها الأخيرة:

"الخبز أغلى... أغلى من الشرف"..

بعد الرصاصتين، ثلاث رصاصاتٍ أنهشت وجهها الرقيق، الذي يُعاند ببرائته كل الضمائر الغائبة في العالم.

(البارت الخامس)

ركلتُ العمر بقدميّ المنهكتين، أبحث عن ظلّها في بقع الدم المتخثّر. لكن لا ظلّ لها. كانت هناك منذ لحظة. كانت تهمس لي، تحميني، تنقذني منّي. والآن... ها أنا وحدي مجددًا، في مدينة تحترف الفقدان وتتعامل مع الموت كما نتعامل مع أي شيءٍ نمارسه يوميًا.

رفعت رأسي نحو السماء، لا لأدعو، ولا لأشكو، بل فقط لأتأكد أن السماء ما زالت هناك، فوق هذا الخراب. كانت غيمة رمادية وحيدة تعبر المشهد، تشبه روحها الزكية التي لم تودّعني.

سمعت صدى صوت، يتهيئ لي بأنه لإسماعيل. كان يتردد في أذني بشكلٍ مجوف:

"لن تجدني.. لن تجدني.."

كانت هناك أبواب مهملة، شوارعٌ بكماء، قططٌ تتضوّر جوعًا دون صوت. فتحت إحدى هذه الأبواب، وجدت صورة ممزقة على الأرض. لم أعرف من في الصورة، لكنها تشبهني في يومٍ ما.

جلست متكأً على الحائط، حتى جاءني طفلٌ لا يتجاوز العاشرة. يحمل بيده كتابًا قديم، مُغبر، لكن في غلافه شيء مألوف. قال لي:

"هذا الكتاب من إسماعيل. وصى أن تقرأ الصفحة الأخيرة"

قلّبت الصفحات وصولًا إلى آخرها، فلم أجد سوى صفحة فارغة بيضاء فقط. رفعت عينيّ بهلع، والطفل الذي كان ماثلًا أمامي، قد اختفى. ولا أدري كيف، كنت أرى أطيافًا مختلفة في آنٍ واحد، كأنني أحلم، وربما أنا بحلمٍ حقًا.

وجدت نفسي قريبًا من مزبلة العم عيسى، كأن المكان قد انطوى فيَّ، وأمتصت تلك المسافة بيننا، رأيته مادًا جسده فوق الأكياس القذرة التي يحرسها التجرذن والتحلل، عيناه مدمعةٌ، وإبتسامته تغطي كل ملامحه، وكلبه يلهث فوقه، قال:

- هل تعرف لماذا كنت أجمع هذه القمامة؟ ليس لأبيعها. بل لأُذكّر نفسي أن كل شيء فاسد كان يومًا ما ثمينًا. لكن الفساد لا يُلغي القيمة، فقط يُخفيها.

نظرت إليه، بعينين مرهقتين من الإيمان والخوف.. قال:

- لا تكره المدينة يا بُني، لأنك إن فعلت، ستصبح مثلها. قاوم بأن تظلّ نقيًا، ولو كانت نقاوتك كومة زجاجٍ مهشّم.

أحنيتُ رأسي، ولم أعرف هل أنحني احترامًا له، أم انكسارًا أمام الحقيقة. ثم همستُ:

- لكن... هل يمكن أن يظل الإنسان نقيًا في وسط العفن؟

رفع عم عيسى يده، وأشار إلى وردةٍ صغيرة، نبتت من فاصلٍ بين علبتي زيت محترقة

- اسألها.

****

ظهر وعيي فجأةً، حتى أثار حواسي الفزع. وجدت نفسي في مكاني ذاته، كانت هي بجانبي مفتوحة العينين، مزرقة الوجه، مُمتلئة الخدين، والدماء التي تغطي جسدها، تنحب في نفور. رفعتها بكلتا يديَّ المهمشتين، وأخذتها بعيدًا عن هذا المدينة.

أمشي بجثتها الطيبةِ، بوجهٍ شاحب، ونظرات لا تشبه أي شيءٍ حي. أمشي بها كأنني أحمل طفولتي المقتولة. كان جسدها خفيفًا بشكلٍ مخيف، كأن المدينة قد شربت منها ذاتها، وتركت لي روئً مشبعةً بالانكفاء. عيناها، رغم الموت، كانتا باسمتين على اتساعٍ يشبه الدهشة.

خطوتُ بين الأزقة، أُخبّئها من نظرات المارّة، لا لأنني أخشى شيئًا، بل لأن موتها يخصّني، لأن انهيارها هو أكثر الأشياء صدقًا رأيتُه في حياتي. كانت الجدران تنكمش، المصابيح تومض ثم تنطفئ. مررتُ بسوقٍ خالٍ، حيث الباعةُ يصرخون بلا أفواه، والعَرَبَات الفارغة تصطكّ كعظام عجوز تُجَرّ نحو نهايتها.

كل شيء كان يلفظ ذاته. وكل حجر كنت أضعه تحت قدمي، كان يقول لي: "ارجع، لقد انتهى كل شيء". لكنني لم أرجع، كنت أعبر بها نحو حافة المدينة، لا لأدفنها، بل لأحرّرها من هذه الأرض الخبيثة.

رأيتُ جسرًا مهجورًا يربط بين ضفّتين متشابهتين من الخراب. وقفت في منتصفه، والريح تصفع وجهي، كأنها تحاول أن توقظني. آهٍ، كم كنا هنا أنا وأختي مريم، وآحسرتاه.. لماذا كنتِ متأملةً بهم يا أختي العزيزة، بهذه الرقة الساذجة كنتِ ترين فيهم نورًا، بينما كل ما فيهم لم يكن سوى دخان. بإنسايتهم، آهٍ من إنسانيتهم... تلك الكذبة الأنيقة، التي تُقال في نشرات الأخبار، وتُباع في الجرائد، ويُدّرسونها في المدارس، ثم يذبحونها على قارعة الطريق، دون أن يشعر أحد بالعار. يا عزيزتي مريم... إنسانيتهم هذه لا تُقاس بالرحمة، بل بكمية العطور التي يرشّونها على جثثهم الداخلية.

وقفت صامتًا، لا أملك معولًا، ولا رفشًا، كل ما أملكه الآن، هذا الجسد المهترئ، وأصابع تنزف، وركبتان ترتجفان تحت وطأة التراب والحزن. ركعت فوق الأرض، ونظرت إلى التربة، كانت يابسة، عنيدة، قاسية مثل كل شيء في هذه المدينة. غرست أصابعي فيها كما تُغرس السكاكين في لحمٍ يابس، أحفر، لا لأني أريد، بل لأنّ هذا أكثر ما أستطيع فعله. كل قبضة من

التراب أقتلعها كانت تسلخ شيئًا من جلدي، حجارة صغيرة تمزق راحتي، جذور تشق أظافري، والبرد يُبلّل جراحي أكثر مما يُبلل الأرض.

صرخت أول مرة حين اصطدمت يدي بحجرٍ مدبب، لكنني لم أتوقف، كسرت الحجر بمفصل يدي، سمعت طقطقة شيءٍ بداخلي، ربما عظمة... أو ربما ما تبقّى من اتزاني. أحفر بيدي كأنني أنتقم من الأرض، من نفسي، كأنني لا أدفنها، بل أدفن فشلي، جبني، رعبي، خوفي منها وهي تنزف دون أن أفعل شيئًا. كانت يداي تتلوّنان بلونٍ لا يشبه الدم وحده، خليط من الطين والرماد والعرق، وصوت أنفاسي صار كأنّه شهقات موتى.

لم أعد أُميز وجهي، هل هذا وجهي؟ أم مجرد قناع من الغبار والتعب والتشظي؟ كلما غرزت يدي أكثر، شعرت أنني أغوص في صدري. كل حفرة أفتحها في هذه البقعة، كنت أشعر بها تنفتح داخلي. أحفر بأسناني أحيانًا حين تتوقف يداي. أنزع كتل التراب بفمي، أبصقها، ألمس الحجارة، وأكسرها بيديّ. الجلد يتفتت، المفاصل تنكمش، الدم يسيل في خطوط غير مفهومة. لكنني أستمر.. أستمر لأنني لو توقفت الآن، سأموت، ولن تجد من يدفنها سواي. أجل، هذه الحفرة التي فتحتها، لا أعرف إن كانت قبرًا لها، أم فمًا تريد ابتلاعي أنا. نظرت إليها، عميقة بما يكفي لأضعها دون أن ترى هذا الخراب، لكنها ليست عميقة كأعماقي، أعماقي التي لم تجد من يحفرها غيري.

عندما وضعت جثتها ودفنتها، نمت على قبرها وأنا ألف ذراعي على ثنايا جسدي الضئيل. كنت أضيع بين غفوةٍ ويقظة. كان البرد حول قبرها لا يشبه برد الشتاء الذي نعرفه، لم يكن مجرّد درجة حرارة منخفضة، بل كان حالة وجود، كأنّه كائن يتنفس على كتفي، يزحف فوق جلدي، ويتغلغل فيَّ بعنادٍ مقيت. بردٌ حقير، يعرف أين يسكن الخوف، وكيف يُوقظ الذكرى النائمة.

لم يكن المكان بارداً فقط؛ بل ميتًا. كأنّ الهواء قرّر أن لا يتحرّك، إلا ليذكّرني بأنني وحدي، وأنّ الموت أقرب من أي شيء آخر. كنت أرتجف، بسبب هذا البرد الذي لم يجمّد أطرافي فقط، بل جمّد قراراتي، رغبتي، وحتى غضبي. كل نفس أخرجه كان يتكثف أمامي، كأنّني أنفث نفسي، شبرًا شبرًا، وأراقبني أتلاشى دون مقاومة.

كان صوت الريح يشبه نواحًا خافتًا يعبر في الأفق. حتى الظلال تغيّرت، لم تعد مجرد إسقاطٍ لضوء باهت؛ غدت شيئًا يُراقبني، يتمدد نحوي، كأنّما يستعد ليغطيني عندما أنهار. البرد هنا، لم يكن برد طقس، بل برد حقيقة، تلك التي لا تُدفأ، ولا تُقاوم، ولا تنسى.

كنت بين ثانيةٍ وآخرى، أطيل التحديق بحيرةٍ مريبة، وأشعر بأن هذه الحفرة لم تكن لها فقط؛ بل كانت أيضًا مرآتي العقيمة. آهٍ يا حبيبتي الحزينة، عزيزتي، ألا تعلمين ماذا يحدث لي الآن؟ ألا تشعرين بخيبتي؟ ألا توبخين هذه النسمات، التي كلما تجمعت حولي، كلما انكشفت حقيقتي أكثر، كأنّ الصقيع يقشرني، طبقة طبقة، حتى لا يبقى فيّ إلا العظم والندم.

ماذا سأفعل الآن، قولي لي، ماذا سأفعل... رغم أني لا أعرفكِ جيدًا، ولم نعشْ سويةً، لكن ما يربطني بكِ أكبر من هذا العالم حتمًا. سأنتقم لكِ، سأنتقم... سأمزق من أباح دمكِ البريئ، سأقطع بملئ فمي أشلائهم، سألعنهم؛ سأسلبهم حياتهم، مهما كلفني ذلك. لكن... لكن كيف، أنا... ؟

كانت الإغماءة تتسلسل ببطء وأنا في هياجٍ مع نفسي، بتلك الأفكار المتضاربة فيما بينها، إغماءةٌ تجر ظلال اليقظة إلى نوم عميق جدًا، لا استطيع سوى الاستسلام له بكل تخاذلٍ وجبن، حتى سمعت صوت ارتطامي على الأرض وهو يشق السماء الغافية في ذنوبها وصمتها.

(البارت السادس)

في البداية، لم أشعر بشيء، فقط فراغ بارد يشبه الصمت الذي يسبق العاصفة؛ لكنه يطول، يطول أكثر مما ينبغي، حتى يتحوّل إلى سكن دائم. ربما هذه هي الخيبة الحقيقية، أن لا تملك حتى رفاهية الانهيار. نعم، لم تكن الخيبة في الحدث، بل في التفسير. في ذلك الصوت الخفي الذي همس داخلي:

"أنت السبب."

ظلّ يكررها كأنها نشيد، وأنا أصدّق، وأعيد تركيب الألم ليبدو منطقيًا. الإنسان أيّها البائسون، حين لا يجد إجابة، يلوم نفسه. وحين ينهار كل شيء، يبحث عن شماعة واحدة يمكن أن يعلّق عليها نجاته، ولو كانت عنقه.

يا لحسرتي، لقد ماتت أمامي، هامدةً، غارقةً في وحلٍ خبيث، كأنه يذكرها بكل أفعالها التي لا أدري كيف قامت بها، وهي التي كانت تضج بكل هذه الطهارة الرقيقة، بكل هذه البراءة الرحيبة. أن هذا ما يستدعي حفيظتي حقًا، لكن ما أهمية ذلك الآن؟ أنها ماتت، ماتت بكل أعتياديةً وسهولة. وما يجعل موتها حدثًا تاريخيًا معطوب، أن قاتلها مجهول الهوية.

أن ما دفعه للقتل، ليس وجودها؛ بل ما تبقى من برائتها التي لم يلوثها الجنس المتكرر، ولا المقايضات غير الشرعيّة ولا حتى الأقنعة الكريهة التي ترتديها يوميًا. هذه المساحة الفارغة من الشرور، التي دفعتها لإنقاضي أنا، أنا؟ ولمَ؟ كم هذا حقيرٌ للغاية، لأنني لا أستطيع أن أكرّهها، ليس لأنني أحبها، بل لأنني لا أملك القوة لأحاكمها على سوء أختيارها. لقد كانت قطعة ضوء تمشي فوق نهرٍ ملوث، وأعرف -أعرف جيدًا- أن الضوء حين يلامس الطين لا يتّسخ، بل يعرّي القذارة التي نحاول دفنها. لكن ما أفزعني فعلًا، ليس موتها، بل صمت العالم تجاه موتها. نعم، لقد انتصرت العادية مرة أخرى، كما تنتصر دائمًا، بانكسار الكبار وصمت الشهود.

أسأل نفسي، هل كانت تعرف أنها ستموت في هذه اللّحظة؟ هل شعرت بشيء حين أخبرتني، في تلك الليلة، عندما وضعت لي المحلول الوريدي عقب الإنفجار المدوي الذي حدث في السنين الغابرات التي تلت، وبدا الدواء يسري مفعوله فيَّ، مُخاطبةً إياي: "أن لا أحد يبقى للأبد"؟ كنت أضحك، أقول إن هذا الكلام لا يليق بشفتيها، وأنها ليست من هذا النوع من النساء اللاتي يتكلمن عن الموت وكأنهن يرحبن به. لكنها رحّبت به. دخلته كما تدخل المرأة غرفتها في المساء، تغلق الباب، وتخلع أقنعتها، وتنام.

آهٍ يا إلهي، آهٍ... أتذكر كيف كانت، رائحتها أول ما تسربت إلى رئتي، خليط غريب من الكحول الطبّي والياسمين، كأنها تقف بين عالمين، واحدٌ للشفاء، وآخر للنبوة. كنت نصف ميت أو ربما كنت ميتًا بالكامل، لكنني تذكّرت أنني كنت أتنفس فقط لأن أناملها كانت تضغط على معصمي، تتحقق من نبضي، وكأن وجودي أمر يستحق التأكد منه.

فتحت حينها عينيّ بصعوبة، ولم أكن أرى جيدًا، لكن الضوء القادم من خلفها جعل منها ظلّ ملاكٍ بلا جناحين. أتذكر أنها سألتني بصوتٍ خافت بعد ما سرى المفعول بوحشيّةٍ صاخبة:

- هل تسمعني؟

فأومأت، أو ظننت أنني أومأت. لم أكن متأكدًا إن كان الجسد يستجيب أم أنني فقط أرغب في ذلك. ثم نظرت في عينيّ مباشرةً، للمرة الأولى، كأنها كانت تغوص في بقايا ما تبقى منّي. لم يكن في تلك النظرة شفقة، ولا حبّ. كانت مليئة بنوع غريب من الاهتمام الهادئ، كأنني مهمّ لأنني موجود، لا لأنني استثنائي. نعم، أتذكر أني سألتها قبل أن أغطَّ في النوم، حين بدأ صوتي يختفي تدريجيًا، بنبرة متكسرة:

- لماذا أنتِ هنا؟ هذا المكان... كله جحيم.

خرجتُ من عندها، لا أمشي على الأرض، بل أتهالك فوق خيبات رخوة تشبه التراب الذي ابتلع جسدها. لم أجرؤ على النظر خلفي، خشيتُ أن ألمحها كما تركتُها، وحيدة، ساكنة، يتغذّى الصمت من براءتها الميتة. لم يكن في ذهني سوى صورةٍ واحدة، أنا، والسكين، وصوتٌ خفيض يسبق الطعن، كأنه صلاةٌ أخيرة تُرتّل قبل الذبح.

رسمتُ المشهد ألف مرة، وتخيّلتُ الدم يتدفّق كأنه كفّارة لدمها الذي أُهدر، لكنني -في قرارة نفسي- كنتُ أكذب. كنت أكذب كلّما أقنعتُ نفسي أنني مستعد للقتل. لأن في داخلي، في قعر هذا الجسد المتهالك، يقبع شخصٌ يتلوّى ويرتجف.

رأيتهم، كما هم يأكلون، يتحدّثون، يضحكون، وكأن النقاء لم يُغتصب، وكأنها لم تُدفن، وكأن العالم سامحهم... أو أسوأ، تجاهلهم. تقدّمتُ بخطى مرتبكة، يدٌ تطبض على السكين في جيبي، وأخرى تُهذّب أنفاسي المرتبكة، لا من الخوف فحسب؛ بل من رغبةٍ شرسة أن أعيد توازنًا مفقودًا، توازنًا لم يكن يومًا موجودًا إلا في خيالي. لكني لم أفعل، لم أستطع.

خطوةٌ واحدة، ثم تجمّدتُ. حدّقتُ فيهما، وانتظرت أن تستيقظ غريزتي، أن تنفجر فيّ كل الأسباب المؤجّلة، أن يخرج الوحش أخيرًا من كهفه؛ لكنه لم يخرج. لا شيء، كنت هناك، واقفًا فقط، كأعمى يحاول أن يرى ما ليس له أن يُبصره والسكين كانت في جيبي، لكنها لم تكن في يدي. واليد كانت خاوية من القوّة، خاوية من كل ما كنت أظنه نداءَ عدل.

سقطتُ، لكن هذه المرة لا على ركبتيّ، بل على ما تبقّى من كرامتي؛ وبينما كنت أجرّ خيبتي مبتعدًا بخطوات مرتجفة، كانا لا يزالان يضحكان. ضحكتهما اخترقت أذني كطعنةٍ باردة، لكنها لم تترك دمًا، يا إلهي.. حتى الطعنات في هذا العالم فقدت أثرها. سرتُ في الشارع كمن خرج تواً من معركة دون أن يُقاتل. الهزيمة الآن، لم تكن من العالم؛ بل منّي. مني أنا، الذي لم أكن بطلاً، ولا منتقمًا، ولا حتى ابنًا صالحًا للوجع.

التفت مجددًا، أحدق فيهما، كانا يجلسان في ذلك الركن الذي لطالما مررتُ به دون أن أراه. زاوية ميتة من المدينة، لا تُثير الشك، ولا تستحق التأمل، تمامًا ككل الأشياء التي تخفي خلفها الخطيئة. جدارٌ باهت، عليه آثار طلاء قديم تقشّر كجلدٍ مسلوخ، تتدلّى منه لافتة ممزقة كتب عليها اسم محلٍ لم يعد موجودًا. بجانب الجدار، كرسيّان بلا ظهر، موضوعان بعشوائية أمام طاولة معدنية صدئة، تحيط بها أكياس بلاستيكية، وعلب مشروبات فارغة، وبعض أعقاب السجائر التي لم ينتهِ أحد من تدخينها. الهواء كان خانقًا، لا برائحة الموت، بل برائحة البلادة؛ تلك الرائحة التي لا تنتمي لشيء، ولا تثير شيئًا. المكان لم يكن قبيحًا بما يكفي ليُدان، ولا نظيفًا بما يكفي ليُحترم. مجرد مساحة عادية، تمارس وظيفتها اليومية.

لم تكن هناك موسيقى، ولا ضوءٌ مميز، ولا طيفٌ من جمال؛ لكن ضحكتهم اخترقت كل ذلك، كأنهم يضحكون من فم هذا الركن المنسي الذي لم يرفّ له جفنٌ لموتها. كأن الأرض التي احتضنت جسدها، والتي ما تزال رطبة من بقايا حياتها، لا تمت بصلة لهذا الحائط، ولا لهذه الطاولة، ولا لتلك الضحكات المبتذلة.

نظرتُ حولي، كل شيء كان قائمًا كما هو..

وهنا فهمت، أن أقسى ما في المأساة، ليس أن تحدث؛ بل أن لا تجد من يشعر بها...

ثم وقفت بعد ذلك، السكين في جيبي، لكنها ليست سكينًا، بل سؤال حادّ أحمله. كنت أمضي في هذا الزقاق النجس، لا أعرف إن كنت ذاهبًا إلى الجريمة، أم إلى نفسي. ثم رأيت في هذه اللحظات الغريبة التي أحسها، امرأة يبدو أنها لم تتجاوز الاربعين تقريبًا، تمشي وحدها، عيناها كريهتان، لا تلتقيان بشيء. كانت تحمل كيسًا وتتقدّم بخطًى بالية، كأنها لا تعترف بوجود العالم وأستقلاليته، وترفض كل محتوياته التي ترصدها الحواس.

امرأةٌ في وجهها جف الزمن، وفي ملامحها تلك القسوة الفاترة التي لا تقتل أحدًا؛ لكنها تمسح آثار الجريمة كما يُمسَح الغبار عن الطاولة.

اقتربت.. نظرت إليّ بنظرة سريعة، لا ازدراء فيها، ولا استغراب، نظرة تلوح على أنها اعتادت رؤية كل شيء، ورفضت أن ترى أي شيء. في تلك اللحظة شعرت بأني مخدوع، نعم.. كنت أظن أنني أبحث عن قاتل، لكنّي وجدت نفسي أمام وجهها الصامت، يشبه وجه الذين وقفوا حين قتلوها أمامي ولم يحرّكوا ساكنًا، وهذا ما أثار بغضي لها بشدة.

فما هي إلا ثوانٍ ومددت يدي نحو سكيني الشاحب والمقنن بالكره، لكنها تابعت سيرها دون توقف، دون أن تنطق حرفًا واحدًا -على الأقل- كأن وجودي لا يعني شيئًا لها، يا لعجزي المقيظ.. ذلك التجاهل الكبير كان بمثابة طعنة بالنسبة لي.

سألت نفسي حينها، هل يكون الفعل هو الذي يعرّف الشر؟ أم أن الامتناع عن الفعل هو أعمق أوجه الشر وأكثرها كثافةً وحنكة؟ لكنني مع ذلك، ورغم إنشطاري في هذا الموقف، لم أنظر إلى المرأة كعدو؛ بل كغريب يحمل معه معنى لم أستطع فهمه. هي ليست مجرد امرأة -إنسان- فحسب؛ بل تجاوزت ذلك، إلى كونها حالة وجودية؛ حيث يتقاطع اللاوعي مع الانطفاء الكامل. كأنها تمثل تلك المسافة اللا منتهية بين الرغبة في الانتصار على الألم، والرغبة في الهروب منه، عبر اللا اكتراثية المطلقة.

تابعت المسير، الضوء واهن، والمدينة تُشبه جُرحًا قديمًا لا يُريد أن يُشفى. رأيت شابًا في مقتبل العمر، يسند ظهره إلى حائطٍ متفطر، يضحك، ويمسك عصًا يضرب فيها أحدًا من أقرانه. شعرت به، كيف يبث هيجاته وعنفوانه في كلّ اتجاه. كان صوته أجوف، ووجهه يشعرني بالتقزز، وعيناه.. آه منهما، يشبهان عيون أولئك الصحفيون الذين توسعت وتلألأت في لحظة إنبثاق العنف في الشوارع العامة، وراحوا يهرولون لأخذ صورٍ لضحاياهم دون أن تمتد أيديهم إلى أحد، أنهم يستمتعون بشراهة، وأن الذي يستمتع بذلك، أكثر قبحًا من موضوع القبح نفسه.

وقفت أمامه، رمقني بنظرة مائلة، فيها استخفاف، وفيها لا مبالاة جارحة، قال: "هل تعرفني؟" لم أجب، لكن في داخلي دمٌ يغلي، ووجع يثور. قلت في خاطري، هل هذا واحد منهم؟ مهلًا... هل.. هل حمل السلاح يومًا وقتل أحدهم؟ هل أستأنس وهو يرى طفلًا جائعًا يحتضر؟ أولم يستفزه هذا الموت المتحرك؟ هذا القهر المتكرر؟

تقدّمت نحوه، السكين تقاومني، لكني... مع كامل الاسف تراجعت. إنّه.. إنّه ليس شخصًا بعينه؛ بل صورة من صور التواطؤ والتطبع. لذا لم أجرأ على قتله. سألت نفسي بعدما قررت أن أزيح نظري عنه، عن ماهية العنف، حتى توصلت إلى أنه يسبق الفعل بمراحل عديدة، العنف بهذا المعنى، هو الشعور الذي لا يخفق أمام المعاناة، حيث تكون الجريمة من هذه المنطلق، أشرس وأكثر حقارةً، حين لا يتحرك أحد لإنقاذ المقهور والمُهدد. ورغم ذلك، لا أدري كيف، لكني كنت دائمًا أشعر بأن الذي يفرغ غضبه في ضرب الضعيف، والضعيف الذي يقف قباله ويبتسم له، رغم أنه يحتضن الألم ويعتصره، كلاهما يقفان بشبقٍ على نفس العتبة، وينظران إلى نفسيهما بتقبل.

ترددت.. ورغم أن يدي كانت ممدودة للانتقام، كان هناك شيء يوقفني؛ شيء يجعلني أكون ماثلًا، أواجه نفسي، تلك النفس التي تسكن بين حدود السخط والعجز، بين الرغبة والارتباك، بين السلب وامتناعي عنه. ها أنا أجلس الآن على الرصيف، الليل يهبط على كتفيّ كنعشٍ خفيف، كأنني في حضرته، أترنّح في هوّة بلا قرار. جاء عجوزٌ، يمشي بتثاقل، رأسه مرفوع كأن في عنقه صكّ نجاة. توقّف لحظة وقال بصوت خشن:

"هيئتك... ما هذه الهيئة؟ من أين أنت؟"

لم أرد، لأنّني لم أرَ في عينيه حنان الشيخوخة، بل بَرْدها. برد من عاش طويلاً حتى فقد إحساسه بكلّ شيء، أردت أن أصرخ فيه، لكنني سَكَتُّ. ثم تابع طريقه.

ولم أقتله..

وفي نهاية الزقاق، جاء رجلٌ، متأنق في مشيته، وحركات بؤبؤوه تفضح عنه الكثير، وتبين أنه من اعتاد إصدار الأوامر، لا تلقيها. يتحدث بهاتفه، يُطمئن الطرف الآخر بأن "كل شيء تحت السيطرة". توقّفت. قلت لنفسي، هذا هو، نعم! وجدته! واحد من أولئك الذين لا يضغطون على الزناد، لكنّهم يختارون من يفعل.

اقتربت، كان لا يراني، أو ربما رآني ورأى فيّ مجرد ظل عابر، وحين سألني ببرود: "هل تبحث عن شيء؟" تقدّمت خطوة، ثم أخرى، لكنني لم أقتله أيضًا. آه من أولئك الرجال، المتسلطون، الذين لا يرفعون أيدهم ليقتلوا، لكنهم يختارون من يُقتلون بعناية متعفنة.

بُت في مواجهة شيءٍ لا أدري ما هو. شعرت بثقل المسافة بين الإرادة والفعل، حيث أن كل خطوة كنت أخطوها تجرّني أعمق في دوامة من أسئلة لا نهائية، دون أن أجد أرضًا صلبة أستند إليها.

وقفت وحدي، لا موتى حولي، ولا عدالة، ولا شيء على وجهي سوى صرخات تنمو فيَّ، لماذا لم تفعل؟ جبان..؟ أكنت تبحث عن شيء آخر غير الانتقام؟ أجبني، ماذا؟ أتريد أن يراك أحدهم ويحس بوجعك فقط؟ هذا كل ما تحلم به، وأوليس ذلك عظيمًا ؟ أوليس ذلك مكلفٌ للغاية؟

لكني جعلته يذهب بدون أن أفعل شيء، لكنني كنت منتبه بشكل عميق حول ذلك الطفل الذي يمتاز بوجهٍ جميل، وشعرٌ أشقر.

أقف خلفه الآن... ذلك الصغير الذي يجلس على التراب، يخطّ دوائر متكسّرة بحجرٍ بين يديه. عيناه صافيتان بشكلٍ يثير رعبي، وكأنهما لم تُلوّثا بعد بأي ظلّ من ظلال هذا العالم.

سكّيني في جيبي، قبضتي ترتجف لها، الحديد ليس ثقيلاً، لكن ثقله كله مضغوط في صدري... ينهشني من الداخل.

أسمع صوتاً يهمس في رأسي:

اقتله... خطوة واحدة وتنتهي القصة

لكن صوتاً آخر يصرخ بي:

كيف أطفئ عينيه؟ أي جريمة تستطيع أن تبرّر محو هذا الضوء؟

أخطو نحوه، فيتضاعف خفقان قلبي حتى أكاد أسمعه يدوّي كطبولٍ في أذني، عروقي كلها تهتز في يدي، كأنها تتمرد على قراري.

يلتفت الطفل فجأة، ينظر إليّ، يبتسم. قلت في نفسي، أي لعنة هذه؟ ابتسامة واحدة مزّقت كلّ ما رتّبته من مبرّرات، الثأر، الأوامر، الخوف. سقطت كلها في لحظة، وبقيت أنا مجرّد قاتل يتردّد.

السكين يلسع كفّي كأنها جمرة. أريد أن أصرخ، لكن صوتي مسجون في حنجرتي. أما هو ظل يواصل رسم دوائره البريئة، وأنا عالق في دوائر أوسع وأشدّ ظلاماً، دوائر ذنبي، دوائر عجزي، دوائر العدم.

والآن لا أعرف... من الأضعف؟ الطفل ببراءته، أم أنا بارتجافتي؟

في ذلك الليل.. لم أقتل أحدًا، لكنّي شعرت كأنّني قتلت شيء، بعيد، حالك، مُصفرٌ جدًا، يشبه الخيط الفاصل بين الغياب والانتظار، شيء... شيء.. يُدعى أمل.

(البارت السابع)

أمطارٌ تُغربل الجو الفسيح، تمسح أكفَّنا المُتربة، ونوايانا التي تستشيط بالغيض. أمطارٌ فضولية، لا تنزل إلا لأنّها سئمت مقام الأعالي. هكذا رأيتُها، تلك القطرات المتجمّعة بغيظٍ شفاف، كما لو كانت ثائرةً على ما لا يُغفر. لكن، أحقًا تستحقّ هذه المدينة أن يغضب أحدٌ من أجلها؟ بل لعلّها لا تستحقّ حتى البلل.

كان هناك رجل. أعرفه، أو هكذا ظننت. ملامحهُ مُتخمةٌ بشيءٍ لا يُشبه الخير. كان يشتري الخبز ببقايا نقودٍ تافهة. لم يكن يمدّ يده كجائعٍ يتوسّل الحياة، بل كالسارق الذي يرى ما بيد غيره امتدادًا لملكه، ولو كان في فم طفل. وجهه لم يكن شريرًا بالصورة النمطيّة؛ بل كان مرآةً، تردّ لنا صورنا إن نحن تخلّينا عن ضمائرنا في لحظة ضعف. شفتاه شاحبتان، وابتسامته -إن وُجدت- تشبه ضحكةً مكسورة، كأنّه يسخر من نفسه قبل أن يجرؤ على السخرية من العالم.

كان يرتدي قميصًا باهتًا، مشبّعًا برائحة المطر والعرق والخبز الرخيص. لكنّ ما كان يبعث الذعر حقًّا، هو وقفته. كأنّه لا يقف، بل يطفو بثقلٍ فوق أرضٍ لا ينتمي إليها، لا يُمسك بشيء، ولا يُفلت. بدا ككائنٍ انبثق من طمي الخراب، وارتوى من لعناته، حتى صار جزءً من نسيج المدينة، أو نسيج قبحها بالضبط. لم يكن شرّه فعلًا يُنتظر، بل وجودًا محسوسًا، كأنك تمرّ بقربه وتشمّ رائحة قاعٍ خفيّ من القذارة.

لم يرفع عينيه، لكنه كان يرى، يرى بوضوحٍ فاضح، لا تعبّر عنه نظرة، بل سكينةٌ متعالية توحي بأنه أذكى من الجميع، وأسوأ منهم جميعًا أيضًا. أحسستُ أنني أعرفه، دون أن أستطيع تذكّره، كأنّه تجسيدٌ واحدٌ لكل الذين صمتوا حين وجب أن يصرخوا، خانوا حين وُعدوا، باعوا حين أمِنوا، وسخروا من الجثث وهي تُجرُّ أمام بيوتهم.

ركضتُ نحوه كما يركض المرء نحو ماضيه، لا ليعانقه، بل ليلطمه. صرختُ فيه:

- إسماعيل! أنتَ... أنتَ السبب!

سَكتُ ثوانٍ، ثم أكملت:

- أين كنتَ حين تفلّت كلُّ شيء؟ حين ماتت، حين سقطت المدينة في وحل خيبتها وبؤسها؟ أنتَ من وعدتهم حين أمسكتَ زمام أمرهم، بأن ترفض الظلم بكل أشكاله، لكنك نسيت أن تُعلّمهم كيف يفعلون ذلك.

اقتربتُ أكثر، ووجهي يحترق من الداخل، ليس بالحزن، بل بجمر الإيمان حين ينكسر. قلتها بصوتٍ يتأرجح بين الصراخ والهمس، كأنّي أُغرغر بالكلمات قبل أن ألفظها:

- لماذا تركتهم؟ لماذا سمحتَ لهذا الخراب أن يتغذّى عليهم؟ أين كنتَ حين صرخ الأطفال من الرعب، وحين بدأت الأمهات تقضم ثديها من شدة الجوع؟ لقد آمنوا بك، صدّقوك، رأوا فيك الضوء وسط هذا الرماد، وكنتَ أول من أدار ظهره... وترَكهم.

كنتُ أتكلم بتلعثمٍ ولهاثٍ حزين، وهو لم يتحرّك، لم يُظهر دهشةً، لم يتراجع، بل قال بهدوء غريب، كمن يحاول أن يتذكّر حُلمًا لم يعشه:

- إسماعيل؟... عن من تتحدث؟

- أنتَ! أليس اسمك...؟

هزّ رأسه ببطء، ثم قال:

- لا أعرف أحدًا بهذا الاسم... ولم أكن يومًا شخصًا يستحقُّ أن يُتبع.

لم تكن تلك لحظةَ صدمة، بل انكسارًا صامتًا لحقيقة متأخرة. سقط الاسم من فمي كما تسقط قشرةٌ جافة. يا للهول... أكان حقًّا ليس إسماعيل؟ أم هو، لكنه نسي نفسه؟ لا... لا أعرف على وجه الدقة ما الذي يحدث، ولماذا يُنكر؟ كيف يُنكر؟ نظر إليّ كأنني أُحدثه بلغةٍ لم يعد يعرفها، ثم أدار ظهره. وصوت خطواته لا يوحي بذهاب، بل بانسحابٍ بطيءٍ من التاريخ. تركتني جملته الأخيرة كمن يبتلع حجرًا دون ماء، (لم أكن يومًا شخصًا يستحق أن يُتبع)... أكان هذا اعترافًا؟ لعنةٌ مقيتة؟

تقدّمتُ نحوه، لكن المطر ازداد، وأخفته ستارةٌ شفافة كأنها تسحبني من المشهد، وتجعل من وجوده مشكوكًا فيه. نظرتُ حولي، لم يكن أحدٌ يلاحظ شيئًا. وقفتُ في منتصف الطريق، رفعتُ رأسي نحو السماء، كان الرذاذ الهامس لا يزال يغتصب السكون، ولكن لم أشعر به مطلقًا، كأن الجسد استقال من الإحساس، وكأنّ الصراخ الذي لم يخرج، صار مقيمًا في الحنجرة.

سرتُ في هذه المدينة الكهلة، لا كمن يمشي على الأرض؛ بل كمن يغرق فيها. لم تكن الشوارع كما عرفتها، كلّ ما حولي بدا بلا ذاكرة، الأرصفة مشقّقة كضمائر أهلها، النوافذ موصدة كأنفاس من سكنوها، والوجوه كانت يهرول فوقها العرق، لكنها وجوه بلا إشارات حزن أو فرح، كأنّها قرّرت أن تلبس الصمت حتى لا يطالبها أحد بالتفسير.

كنت أمشي وخيبتي تسبقني بخطوة، كلّ زاوية في هذه البقعة كانت تذكرني بشيءٍ لم يعد لي، ذلك المقهى الذي كنّا نحلم فيه، صار متجرًا للخرق الرخيصة. الحديقة التي كنا نخطّ فيها أحلامنا على التراب، أُقيم فوقها سياج صدئ. حتى الجدران، صارت مليئةً بشعاراتٍ لا أفهمها. كان المكان كلّه أشبه بمتحف للفشل العام، وأنا الزائر الوحيد الذي يعرف أنّه من المعروضات.

عبرتُ قرب مدرسة، سمعتُ صراخًا من الداخل، لكنه لم يكن صراخ الأطفال، بل صراخ الحروف وهي تُنتزع من أفواههم، بلا فهمٍ، بلا حُب. وتلك المستشفى، رأيت الأمهات جالسات على العتبة الخارجية، ينتظرن دورًا لا يأتي، يحملن أبناءً كالدمى المحروقة، ويتوسّلن الرحمة من موظف غائب، أو طبيب لم يأتِ بعد.

أحسست أني أختنق، لا من الروائح، بل من ثقلٍ مجهول. جلستُ على حافة الرصيف، بجانب قطة نحيلة تنظر إليّ كأنها تسألني: "ماذا كنتَ تنتظر؟" لم أُجبها. قلت لنفسي، ربما كنت أنتظر شيئًا يشبه العدالة، أو حتى الوضوح. لكن لا عدالة هنا، ولا وضوح. كل شيء مضبّب كذاكرتي، مُشوّش كعقيدتي. وحين نظرتُ إلى السماء، كانت الغيوم لا تزال تبكي، لكنها دموعٌ ليست طاهرة، حتى هذه القطرات فقدت حيادها الأخلاقي في هذا العالم.

****

كان على جانب الطريق الآخر، مسجدٌ قديم، متهالك، كان يذوي صوتًا غير مفهومًا، مسجدٌ بلافتةٍ مُتحطمة، مسـ..جـد الأمـ..ـين"، كان الصوت مريبًا، وغير مطمئن، لكن هذه الأشياء التي كان يرددها، لم تتوقف. وبقرب باب المسجد تحديدًا، بركةٌ تحوم فيها زنابق الماء، وحول هذه البركة الكثير من "القصب" و"البردي"، إن هذا المكان برغم جماله، يملك حزنًا شفافًا، وضياعًا كبير. لأنهم لُزم عليهم الأمر أن يقتلوا كل الضفادع التي تسكنها بسبب أصواتها العالية، كان سقوطهم قتلى جنب بعضهم، بمثابة موتٍ لتلك البركة.

وماذا يمكنني أن أفعل؟ كنت حينها جالسًا، أتلمس ظلّي على الرصيف، حتى سطع وجهٌ في ذاكرتي كوميضٍ بين الحطام. عيسى.. من..؟ كيف... كيف نسيته؟ هل مات في ذات الركن الذي كان يحرسه؟ أشتقت له وهو يصرخ في المارة: "لا تلمسوا النفايات، هذه ذاكرة!".

ثم برزت مريم من بين العابرين، في ذلك الرصيف المهترئ، وهي تبكي وحيدةً وتنظر لي كأنني أصبتها بخيبةٍ كبيرة، ركضت لكني بطيئ، أدفع بهم وأتعثر بسبب نحافتي واصاباتي السابقة، ثم لم أجدها. بقيت خاويًا، منحي الرأس، لكن سمعت صوتها! رفعت رأسي مباشرةً، ثم... ثم تجلّى وجهها. وجه أمّي. ذلك الوجه الذي لم يبتسم إلّا لتصحيح خطأ، أو لتهنئة أحد عندما تفوّق عليّ. كم كانت قاسية... كم كانت تمشط رأسي بعنف، كأنّها تزرع الألم كي لا أنام. لكن، أليست هي من صنعتني؟ أم أنّها فقط سلّمتني هكذا إلى العدم، وخافت أن تعترف..

شعرتُ أن رأسي سينفجر، كلّهم في رأسي الآن، يصرخون، يضحكون، يتألمون، يختفون ويظهرون. لم أعد أحتمل. نهضتُ، تتبعني أنفاسي كأنّها تنهشني. دخلتُ زقاقًا مهجورًا، لا تُضيئه سوى لمبةٍ مصابة بالارتعاش. رقدت تحتها، وقلت لنفسي: كفى... كفى، لا يمكن لهذا أن يستمرّ.

مددتُ يدي إلى جيبي. كنتُ واثقًا أنني أملك سكينًا. أراه الآن... له مقبض خشبي باهت، وشفرة صدئة لكنها كافية

رفعته ببطء، وضعته على معصمي.

توقّفت قليلاً...

تخيلت دمي، تخيّلت ردّ فعلهم... عيسى، مريم، أمي، حبيبتي، المدينة، والله.

ثم ضغطتُ بقوة. ضغطت بكل ما أملك من صلابة.

لكن... لم يحدث شيء.

نظرتُ إلى يدي، لم يكن هناك شيء. فقط يدٌ مجعدةٌ ومُترهلة. ضحكت... ضحكة غريبة، بين سخرية وبكاء، كأنني فهمت أخيرًا شيئًا لا معنى له. لم أكن أملك سكينًا أصلًا، كنت أتوهم ذلك. آه.. ماذا أفعل الآن؟ كان صخب العربات، والمطر الذي يشتد حينًا بعد حين، يجعلني ساكنًا، أتطلع إلى هذه المدينة، بكل ناسها واشياؤها بنظرة شاحبة.

في هذه اللحظة ثمّة طفلٌ ظهر، كان قلقًا ومرتابًا، لكنه ينظر بإتجاهي، ويطيل التحديق. كانت أمه تشد على معصمه النحيل بعنف، بدا لي كأنه أراد أن يحدثني بشيءٍ ما، شعرت بذلك لكنها أنهت هذه الفرصة بكل حزمٍ وثبات، وأخذته من جانبي وهي تقول له:

- دعكَ عنه إنه مجنون

- ماما، لعلّه...

ثم أسكتته، وذهبا بعيدًا كأنهما لم يكونا هُنا.